أيرلندا الأمّ

إدنا أوبراين

@ketab_n
Follow Me
10.5.2017

ترجمة : أسامة منزلجي

أيرلندا الأمّ

تأليف

إدنا أوبراين

ترجمة

أسامة منزلجي

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

Twitter: @ketab_n

أيرلندا الأمّ

Twitter: @ketab_n

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

أيرلندا الأم
أوبراين، إدنا

© حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
الطبعة الأولى 1430 هـ 2009 م

PR6065.B7.Z46912 2009
O'Brien, Edna,1930-
[Mother Ireland]

أيرلندا الأم/ تأليف إدنا أوبراين؛ ترجمة أسامة منزلجي؛ . ط.1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.

ص 184 : مص: 21x14 سم

يتضمن مراجع ببليوجرافية

ترجمة كتاب: Mother Ireland

تدمك: 978-9948-01-334-1

1. المذكرات. 2. أيرلندا- العادات والتقاليد.
3. المؤلفون الأيرلنديون. أ. منزلجي، أسامة

أيرلندا الأم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:

Mother Ireland

First published by Weidenfeld & Nicolson 1976
Published in Penguin Books 1978
© 1976 Copyright Edna O'Brien.
All rights reserved

كلمة KALIMA
info@kalima.ae
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ، فاكس: 462 6314 2 971+

www.cultural.org.ae
أبوظبي للثقافة والتراث ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ، فاكس: 462 6314 2 971+

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

إهداء المؤلّفة

إلى جون فورتشن – حينئذٍ[1]

[1] تعني الكاتبة أيام كانت لا تزال تعيش في أيرلندا، قبل أنْ تُهاجر منها إلى إنكلترا قسراً. - المترجم

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المحتويات

الفصل الأول: الأرض نفسها.....9

الفصل الثاني: مسقط رأسي.....51

الفصل الثالث: غرفة الدرس.....79

الفصل الرابع: الكتب التي قرأنا.....101

الفصل الخامس: دير..... 125

الفصل السادس: دبلن مدينة جميلة.....151

الفصل السابع: الهروب إلى إنكلترا.....179

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

1. الأرض نفسها.

البلدان هي إما أمّهات أو آباء، وهي تُثير في الجسم قشعريرة الانفعال العاطفي المُخصّصة سراً لكلا المخلوقَين المُبجّلَين. ولطالما مثّلتْ أيرلندا امرأةً، رحْماً، كهفاً، بقرةً، روزالين[1]، أنثى خنزير، عروساً، مومساً، وأيضاً، طبعاً، حيزبون بير[2]. في الأصل كانت أرض الغابات والأدغال، كما شاهدها أورفيوس عندما نصحَ بقيام جيسون برحلته، من خلال غلالة من الضباب. ويُعتَقَد إنها تعرّضتْ للغزو منذ أنْ انتهى العصر الجليدي وسمح المناخ للأيائل بالاحتشاد في الغابات الكثيفة.

هذه المعلومات تسرّبت إلينا وقيلتْ وصِيغتْ عبر رجالٍ ووسطاء وَصَفوا اغتصاب جسدها وروحها. ولطالما سكنها اللّه. شفيعه

---

[1] روزالين: هو الإشارة الشعرية إلى أيرلندا. - المترجم

[2] حيزبون بير: في الأساطير الأيرلندية تظهر على هيئة شيطانة حيزبون قبيحة المنظر أو ساحرة، لها عين واحدة في جبينها، تحمل هراوة وتدمّر كل ما يُقابلها وتتبعها الحيوانات. وهي رمز لقوى الطبيعة المُدمِّرة. - المترجم

Twitter: @ketab_n

القديس باتريك (وهو غير مُطوَّب[3]!) فرَّ كعبد من أنتريم[4] تلبيةً لنداءِ صوتٍ أمره بركوب سفينة والتوجُّه إلى القارّة. سافر مع حمولة من الكلاب الذئبيّة وانطلقَ إلى فرنسا، وفي مدينة أوكسير، درسَ ليُصبح رجل دين. ومن جديد استدعاه صوتٌ مصحوب برؤيا ليعود إلى أيرلندا وفي القرن الخامس بدأ بهداية الناس في الشمال، ومن ثم في الأراضي المُنخفضة، وهكذا تغيَّر حديث الرجال وتفكيرهم بعد أنْ رضخوا لتأثير باتريك وأسر الكتاب المقدَّس. وأسلاف باتريك، الرومان، لم يغزوا أيرلندا، لكنَّ تاسيتوس[5] سجَّلَ كيف حدَّقَ أحد القادة الرومان من اسكتلندا عبر البحر فرأى أنَّ في إمكان فيلقٍ واحد أنْ يُخضعها. لعلّه كان مُخطئاً، ذلك أنه على الرغم من محاولات فيالق كثيرة أخرى لإخضاعِها، لم تُحتَل أيرلندا بصورة كاملة، بل نُهِبَتْ بالكامل.

في نحو عام 1860، كانت هناك راهبة تنتمي إلى طائفة متصوّفة في مقاطعة كيري تُمضي وقتها في تجميع تاريخ مقاطعتها ليكون حضّاً للأيرلنديين والأيرلنديات في أميركا على تذكيرهم بأحداث تاريخهم النبيلة والمجيدة. وشدّدت على أنَّ أيرلندا لم ترتدّ أبداً عن ديانتها. ولما كانت ناسكة وجدتْ أنَّ من الضروري حماية نفسها ضد التلوُّث بالنزعة الوطنيّة. لقد شعرت بأنَّ القلبَ المفعم بحب الوطن يمكن أنْ يحترق بالعنفوان نفسه تحت الحجاب كما تحت القلنسوة! وأوردت كمِثال مايكل أوكليرغ، الراهب، الذي ألَّفَ «حوليات المعلّمين

---

[3] مُطوَّب: في العرف المسيحي، مُعتَرَف به قديساً من قِبَل الكنيسة. - المترجم

[4] أنتريم: مدينة في شمال شرق أيرلندا. - المترجم

[5] تاسيتوس (55 م – 117 م): مؤرّخ روماني. لا يُعرَف عن حياته إلا القليل. كان ينحدر من عائلة أرستقراطية. درس المحاماة وعمل في دوائر الدولة. كان خطيباً مفوّهاً. أهم مؤلفاته «التواريخ» و«الحوليات». - المترجم

Twitter: @ketab_n

الأربعة» في القرن السابع عشر، لكي يُدوِّن تاريخ سلالته الحزينة، «وتبقى حتى آخر الزمان».

وصفتْ، مُعتمدة على مُختصر ما قال، الانطباع الأول عن أيرلندا الخاوية خلال الأيام التي سبقتْ الفيضان، عندما سمعت امرأةٌ عبرانيّة، وكانت سيدة محترمة، اسمها قيصريّة، نسيبة نوح، نبوءةَ قريبها حول حدوث فيضانٍ شامل، فقرّرتْ أنْ تفتش عن ملجأ في أرضٍ أجنبية، علّها تعثر على بلدٍ غير مأهول وبالتالي غير مُلوّث بالإثم. وانطلقت مع مجموعة مؤلّفةٍ من ثلاثة رجالٍ وخمسين امرأة بحراً تمخر البحر الأحمر، مارّين بمعابد الفلسطينيين ومُتّخذين من أعمدة هرقل[6] منارات يستضيئون بها؛ وتجاوزوا ساحل إسبانيا الغادر، ومنها إلى أيرلندا، جزيرة القَدَر، ليسترزقوا ويعيلوا أنفسهم. وشعبها هو أول شعب يطأ تلك الأرض، الأول في سلسلة طويلة من الأرواح الأيرلندية الجسور.

بعد ذلك احتلّها أتباع الملك بارثولان، من سلالة أبناء يافث[7]، الذين وصلوها عبر البحر المتوسط والمحيط الأطلسي بعد الطوفان بثلاثمائة عام، في حوالي عام 2000 من بدء العالم. وصلوا إلى كنمير في غرب منستر ويُعتَقَد أنهم نشروا فنون الأدب، والتجارة والزراعة. وإلى ملكهم، بارثولان، يُعزى أول مِثال على الغيرة في أيرلندا. فقد كانت زوجته مذنبة بإقامة علاقة جنسية مع أحد عبيدها وعندما عنّفها من أجل ذلك سألتْ زوجها هل يعتقد أنَّ من الممكن أنْ يترك المرء عسلاً بالقرب من امرأة، أو حليباً حلواً

---

[6] أو مضيق جبل طارق اليوم.

[7] يافث هو أحد أبناء سيدنا نوح عليه السلام. - المترجم

Twitter: @ketab_n

بالقرب من طفل، أو طعاماً بالقرب من رجل، أو قطعة من اللحم بالقرب من قطة، أو أدوات بالقرب من ميكانيكي، أو رجلاً بالقرب من امرأة وسط الصحراء، وتتوقع أنّ يتجاهل أحدهما الآخر؟ وفي ثورة غضب قبض على أفضل كلابها وقتله بتحطيمه على الأرض.

مات شعبه متأثّراً بوباء الطاعون، وترك الأرض يباباً. ثم جاء نيميد، من ذرّية ماغوغ، وما كادت تلك القبيلة تستقر على الجزيرة حتى جاء الفورموريون، وهم بحّارة ضخام من أفريقيا، كانوا يجّبون الضرائب من رعاياهم بأخذ أطفالهم، والذرة، والماشية، والقشدة، والزبد والطحين.

ثم غزاهم الفيربولغ ونهبوهم، وكانوا رجالاً ذوي بطون ضخمة جاؤوا من اليونان إثر استعبادِ سادتهم لهم، حيث كانوا يُحمّلون حقائب من الطين على ظهورهم لكي يُمهّدوا به الأرض الوعرة. وقسّموا أيرلندا إلى خمسة أقسام، وكل قسم يُشكّل مملكة، وعاشوا في سلام إلى أنّ جاءت قبائل الدروید حوالي عام 3000 ذات يوم صاف من شهر أيار. والدروید، الضالعون في السِحر والشعوذة، كانواً يُسمّون تواثا دِه دانان[8]، لأنهم كانوا تابعين لحكم الإلهة الساحرة دانا. كانوا يمتلكون أربعة طلاسم تنطوي على قوى خارقة، هي حجر القَدَر، الذي كان يزأر إبّان انتخاب أحد الملوك، وسيف طويل لا يعرف الهزيمة، ورمح ذو استقامة مثاليّة، ومِرجل لإنزال العقوبات. وهم أيضاً غَربَ زمنُ سِحرهم وتم دحرهم وإعادتهم إلى

---

[8] تواثا دِه دانان : أو شعب الإلهة دانو: في الأساطير الأيرلندية، يُعتقَد أنهم ينحدرون من آلهة أيرلندية ما قبل المسيحية، وعندما دُوِّنَتْ الحكايات الباقية، كانت أيرلندا مسيحية منذ قرون وأصبح أفراد شعب تواثا دِه يُمثَّلون بملوك وأبطال من البشر ينتمون إلى الماضي السحيق. - المترجم

Twitter: @ketab_n

العالم السفلي على أيدي أبناء ميليسيوس[9]، وهم الغال القادمون من أسبانيا.

في أول الأمر دحرهم الدانانيون ببث الضباب على الجزيرة بحيث اتّخذتْ شكل ظهر خنزير وبإرسال ملكاتهم الثلاث لتملّق أتباع ميليسيوس وإرباكهم. وتم عقد صفقة يقوم أتباع ميليسيوس بموجبها بحمل تسعة براميل ضخمة (tonnes) إلى عرض البحر، وإذا تمكّنوا في المرة الثانية من الرسوّ فإنَّ لهم حُكم الجزيرة.

ولكن ما أنْ أصبحوا في عرض البحر حتى أثار الدانانيون عاصفة مُدمّرة وجعلوا المياه تثور وتضطرب بحيث أضحت السفن تتلاطم وتتقاذف كالكُرات، وغرقت طواقم السفن كلها بمَن فيهم أبناء ميليسيوس الخمسة. والذين نجوا علِموا أنَّ الدانانيون تلاعبوا بأحوال الطقس وعادوا من أسبانيا بتعزيزات جديدة. ودارت بينهم معركة ضارية في ديري حيث ذبحوا مُحاربي دانان وأيضاً ملكات دانان.

قسَّم أتباع ميليسيوس الأرض بين شقيقَين، هما إيبر وإيريمهورن، بحيث يحكم كلٌّ منهما مدة عام، إلى أنْ جاء يوم وتنازعا على ملكيّة ثلاث هِضاب إستراتيجية، وفي المعركة المحتومة التي دارت بينهما قُتِلَ إيبر. ثم أصبح إيريمهورن ملك أيرلندا، ثم خَلَفته سلسلة طويلة من الملوك إلى أنْ جاءت ماشا، وهي امرأة ذات جدائل حمراء، وادّعت أحقيَّتها في الحُكم بوصفها السليلة الشرعية. فتخفّت بشكل شخص مجذوم، وسحرت خصومها المُحتَمَلين من الذكور وأخذتهم إلى الغابة، واحداً إثر آخر، وهناك قيَّدتهم بالأغلال وجعلتهم عبيداً لها.

---

[9] ميليسيوس: السلف الأكبر لآخر ساكني أيرلندا، أبناء ميل، أو الميليسيون.

Twitter: @ketab_n

كان تل تارا في مقاطعة ميث هو مقر تنصيب أولئك الملوك وهو أيضاً مكان إعلان القوانين أو تلاوتها، وتُضاف فيه الأحداث التاريخية، وتُجدَّد سلالات الأنساب. تارا ذو الروابي الخضر، المُسيّج والمُخندّق، تارا بحجر القَدَر والقداسة المتأصّلة، هو المكان الذي تعلَّمَ فيه الملوك محظوراتهم العديدة والوصفات التي تجلب لهم الحظ السعيد – كسمكة نهر بوين[10]، وأيل لويبْنك، وعنبيّة بريليث، ونبات قرّة العين من بروسناك، ومياه البئر وأرانب ناس Naas.

لطالما كانت الأعراف مناسبات للاحتفال الصاخب حين يجلس الملك الأعلى، والملوك الأدنى مقاماً، وحرّاسهم، والشعراء، والمحامون، والنساء والعبيد جميعاً في أماكنهم المُعدَّة لهم وهم يرتدون الألوان المناسبة لهم. كان يُسمح للعبد أنْ يرتدي لوناً واحداً، والفلاح اثنين، والجندي ثلاثة، وصاحب المطعم العام خمسة، والملك والشاعر ستة ألوان. وكان يمكن لقطع لعبة الشطرنج أنْ تخترق مخ رجل وغالباً ما كانت تفعل. كان المُحاربون يجلسون ورؤوس أعدائهم المقطوعة تحت أحزمتهم وأحشاؤهم تتدلى منهم حتى أقدامهم بينما الجنود العاديون يحشون جراحهم بالطحالب لمنع الدم من التدفُّق. «ليس الذهب ما كان يُقبَل من الرجل تكفيراً عن عِقاب بل روحه في ساعة واحدة». ومع ذلك كان لهم بروتوكولهم الخاص، والتفاصيل الدقيقة جنباً إلى جنب مع الدم المتخثّر. وعند تقطيع الحيوان المطبوخ ينال المؤرِّخ عَظمة معقوفة، ويحصل الصيّاد على كتف الخنزير، والشاعر والملك على أفضل قطع شرائح اللحم الطري، والحدّاد على رأس

---

[10] بوين: نهر في أيرلندا، كان يُعتبَر مُقدَّساً، أوجدته الملكة بون في الأزمان السحيقة. – المترجم

Twitter: @ketab_n

الحيوان! ثم حلّت لعنة القديس روادان في عام سيدنا 565، لأنَّ الملك الأكبر ديارموید[11] تجاهل حق الحَرم الذي يُعطى للمجرمين في الأماكن المقدّسة. وسافر القديس من تيبراري، مع ثلّة من الرفاق، ووقفَ على راث السينودز[12] في تارا وأنزلَ لعنته على الملك والمكان وكانت النتيجة أنه لم يعُد مقاماً ملكيّاً.

الآن تارا هو مكان متواضع مهجور، وموضع نزاع بين هيئة الأشغال وسيدة ترفضُ بيع حصّتها قائلة إنها لا تشكّل نُصُباً وطنياً. وتمرّ بمحل يقدّم الشاي، وبحديقة مملوءة بأزهار بطاقات البريد، وتدفع رسم دخول اسمياً، وترتقي التل، وترى أنَّ زجاج أحد النوافذ المُبقَّع في الكنيسة قد هُشِّمَ من الخارج، وتُتابع الارتقاء، وتصل إلى صرح من الحجر، وتحاول أنْ تقرأ ما على الرقعة المكتوبة بالأيرلنديّة، وتنظر إلى الأسفل فتجد عجولاً في السهول السفلى، وترى تحتك علامات تدل على المكان الذي حفروا فيه سعياً وراء العثور على نفائس استثنائية. وعلى مسافة ستة أميال يوجد مُخيَّم للاستجمام حيث فتيات تلفّنَ شعورهن بلفافات بلاستيكية يتمشّين جيئة وذهاباً على الممرات الإسمنتية الصغيرة كأنها دُمى، بحثاً عن العريس المناسب والمفارقة هي أنهنّ لا يجدن إلا عجائز مخبولين يسوقون أطفالهم من وإلى عرض ميكي ماوس. وعلى الرغم من أنَّ قصيدة توماس مور[13] خيالية، إلا أنها صحيحة في روحها وتنطبق

---

11 ديارموید: ملك أيرلندا الأكبر: أحد ملوك أيرلندا. توفي عام 665.

12 راث السينودز: أحد مواقع التل المذكور.

13 توماس مور (1779- 1864) شاعر ومؤلّف موسيقي وروائي أيرلندي. وُلد في دبلن لأب بقّال. كان يوقّع أشعاره الأولى بلقب «توماس الصغير». أشاد به بايرون. وأصبح الشاعر الوطني في أيرلندا. كتب سيرة حياة شيريدان، صديقه المقرّب، وسيرة بايرون، الذي ترك له مذكّراته، لكنَّ مور أتلفها. - المترجم

Twitter: @ketab_n

جزئياً على باقي أيرلندا:

«القيثارة، التي كانت ذات يوم

تنشر روح موسيقاها في أروقة تارا،

مُعلّقة الآن على حيطان تارا

و كأنّ تلك الروح فرّتْ.

هكذا تغفو كبرياء الأيام الغابرة،

هكذا تنتهي نشوة المجد... »

لم يكن هناك مفرّ من اجتياح أيرلندا من قِبَل قبائل السكسون الأقوياء، جيرانها على الضفة المقابلة من البحر الأيرلندي[14]، لكنَّ السبب الحقيقي لتلك الغزوة الأولى يُعزى إلى الضعف الإنساني. فقد قاموا بغزوهم الأول في عام 1169 في ظل حكم هنري الثاني، وذلك بسبب مُفارقة وقعتْ. إذ لمّا كانت ديفورغيلا، زوجة بريفن أورورك[15]، تعشق درموت ماكمرو، أمير لينستر، استغلّت فرصة غياب زوجها واستسلمت لإشباع حب درموت وشهوته. وعندما سمع أورورك المخدوع بهذا العمل الشائن، توجه إلى الملك الأكبر روثوريك وحصل منه على مساعدة من أجل غزو لينستر. رفضت جماعة درموت مساعدته فهجر قصره وهرب لكي يطلب مساعدة هنري الثاني، ملك إنكلترا، فاستُقبِلَ في كنف الملك بالحفاوة والتكريم. وأعطاه الملك وثيقة يحملها إلى بريستول لكي يستدعي

---

14 البحر الأيرلندي: الجزء الشمالي من المحيط الأطلسي، الواقع بين بريطانيا العظمى وأيرلندا. - المترجم

15 بريفن أورورك: أورورك كان أحد ملوك منطقة تجمُّع قبيلة تدعى بريفن في أيرلندا، وقد تعاقب عليها عدد كبير من الملوك.

Twitter: @ketab_n

جيشاً يساعده في استعادة لينستر، وبعد الكثير من المثابرة والكثير من الحضّ السرّي، جمع درموت جيشاً بقيادة روبرت فيتزستيفنس. وتمكن فيتزستيفنس، بعد وعده بإعطاء وكسفورد وقطعتين في الأرض، من جمع حفنة من الرجال المُسلحين، وحوالي ثلاثمائة رامي سهام، ومُشاة اختيروا بعناية وزوِّدوا بالرماح. وبإبحارهم إلى أيرلندا حققوا نبوءة مرلين[16] القديمة القائلة بأنَّ فارساً مزدوجَ الأصل سيغزوها، بما أنَّ فيتزستيفنس كان له أب نورمانديّ وأمٌ كمبريّة، وبما أنَّ جيوشه وشارته موزّعان بين شعارَين. ملؤوا الخنادق المُحيطة بوكسفورد بالرجال المُسلّحين، بينما اصطفّ رُماة السِهام على طول أبراج الأسوار، ومن الداخل واجهوا الكراهية من السكان الأصليين بتلقّي قطع كبيرة من الخشب والحجارة. وفي تلك الليلة انسحبوا واحترقت بعض سفنهم، ولكن في صباح اليوم التالي، بعد أنّ أصغوا إلى صلاة خاشعة، قاموا بهجوم جديد واستسلم المواطنون بعد وساطات الأساقفة والرجال الشرفاء، وقدّموا رهائن ووعدوا بالولاء لمكمرو[17].

جلب له المُشاة ثلاثمائة من رؤوس الأعداء، ووضعوها عند قدميه، وبعد أنْ أدار كلاً منها نحوه لكي يتعرَّفَ عليهم، رفعَ يديه من فرط الفرح وشكر ربّه ثم، عندما رأى أحد الرؤوس كان يخصُّ رجلاً يكرهه حتى الموت، رفعه من شَعره وأذنيه وعضّ بأسنانه الأنفَ والشفتين. وواصلوا هجماتهم على لينستر، وحاربوا الأيرلنديين المتوحشين الذين خرجوا من الغابة، والمضايق، والممرات والمستنقعات، وذُبحوا

---

16 مرلين: شخصية أسطورة عن ساحر فائق القوة، جاء ذكره في أساطير الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة.

17 درموت ماكمرو (1110 - 1171) ملك أيرلندا ولينستر. طلب دعم هنري الثاني ووعد بالولاء له في المقابل، وقبِلَ بتزويج ابنته لريتشارد دو كلير، الأيرل الثاني لبمبروك.

Twitter: @ketab_n

بأعداد هائلة أو قُطِعَتْ رؤوسهم بفئوس المُحاربين. قتلوا، وأفسدوا، وأحرقوا وتخفّوا حتى يُضطر الذين فكّروا في مقاومة مكمرو إلى إعادة التفكير لأنه، وكما يعرف العالم، «الحظ مثل إيمان الإنسان يزداد أو يقلّ». وفي العام التالي 1170، أرسل درموت في طلب سترونغبو[18]، ريتشارد دو كلير، مُستدرجاً إياه ليأتي إليه بكلام عذب ككلام الفتيات:

كتب يقول «جاءت طيور السنونو واللقلق، وكذلك طيور الصيف، ورحلت الرياح الغربية من جديد. وطال اشتياقنا وتمنينا لمجيئك، وعلى الرغم من أن الرياح أضحت شرقية أو آتية من نواحي الشرق، إلا أنكَ لم تأتِ إلينا بعد، لذا لا تتلكأ أكثر من ذلك، وأسرع بالحضور إلينا لكي لا يبدو أنكَ لستَ متحمّساً، أو نسيتَ وعدكَ لنا، بل لأن جُرح الزمن هو سبب تأخرك الطويل. لقد استسلمتْ لينستر كلها لنا، وإذا أتيتَ على جناح السرعة مع حشد من الرجال الأشدّاء، فلا شك لدينا في أن الفِرَق الأربعة الأخرى سوف تأتينا وتنضم إلى القسم الأول».

ثم عقد اتّفاقاً سرياً مع روثوريك[19]، يقضي بأنه حالما يتم إخضاع لينستر سوف يعود ويُرسِل الشعب الإنكليزي إلى وطنه، وأيضاً لن يستدرج المزيد إلى العودة. لكن تلك الخطة لم تُنجَز. فبعد ذلك بوقت قصير، مات درموت متأثّراً بمرضٍ مجهول ولا يُسبب أي

---

[18] سترونغبو: هو لقب ريتشارد دو كلير.

[19] روثوريك: أمير كوناغ أو كونوت، وهي مقاطعة في شمال غرب أيرلندا. استعان بمساعدة أمراء مقاطعات أخرى لحصار دبلن والحصول على مناطق نفوذ أخرى.

Twitter: @ketab_n

أيرلندا الأم:

آه! سيدة جميلة ورشيقة بشفتَين رقيقتين ملتهبتين،

وصدر أشدّ بياضاً من غُصنٍ مُثقلٍ بالثلج،

عندما ارتفعت يدي للجماهير لكي تُخفي الحشد

نظرتُ إليكِ مرةً، فضاع نصف روحي.

Twitter: @ketab_n

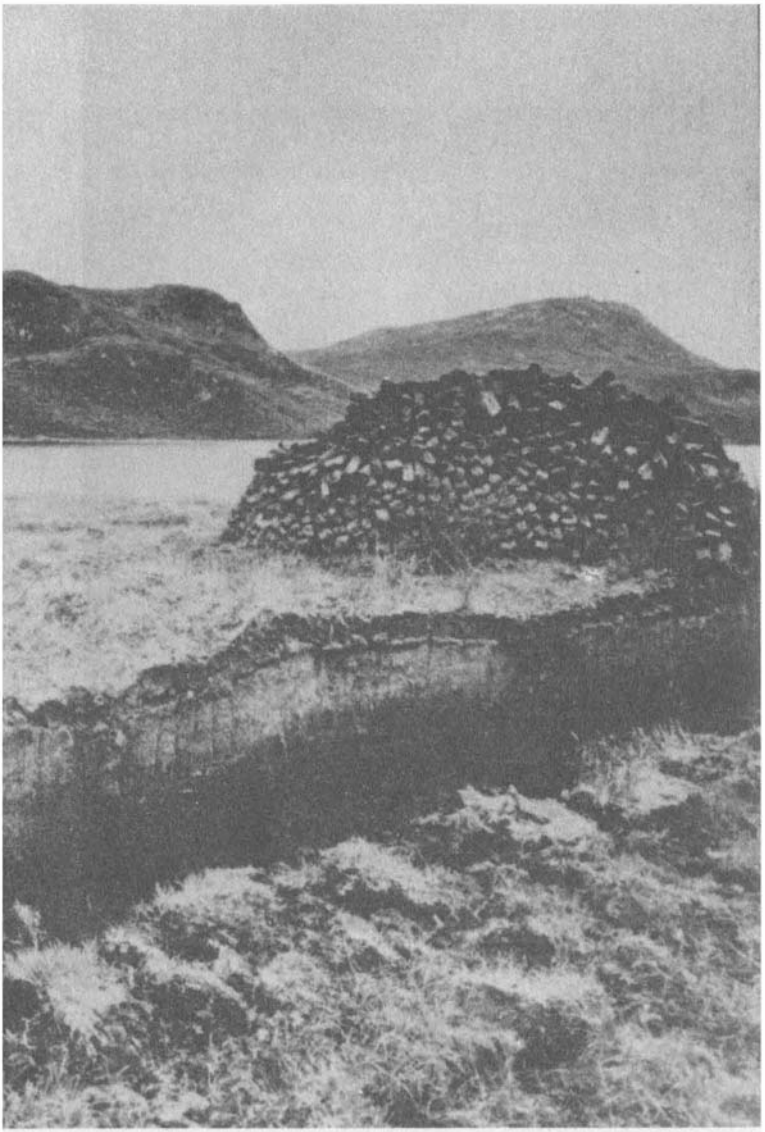

قطع الخُثّ:

الخُثّ يُجمّع في أكوام لكي يجفّ. وعندما يُحرَق يملأ الدخانُ المكانَ.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

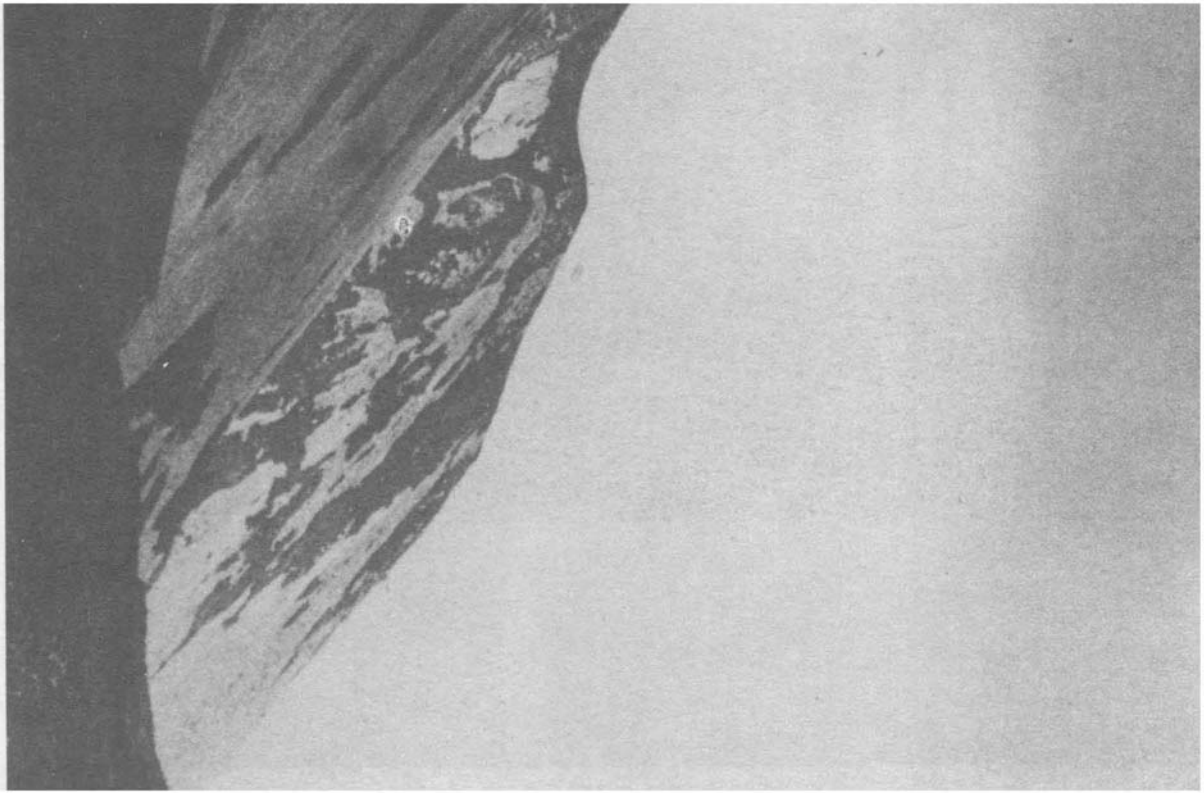

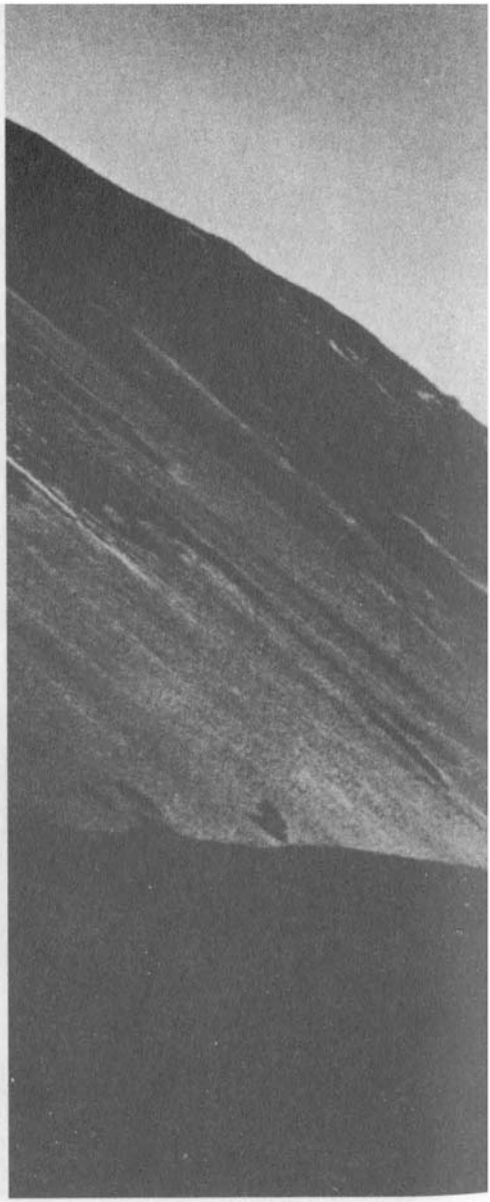

تل دونغال:

دونغال – الجبل الأسود الكئيب، الحقول غير المحروثة وغير القابلة للحرث، منازل مزارعين صغيرة تتدحرج أسفل المنحدرات الشاهقة. الأشجار صنوبريات، والألوان متنوعة، وحقائب بلاستيكية مختلفة لجلب الحُث إلى المنزل. البحر، المقبرة سوداء والبحيرات العديدة وزُرقة لا تختلف عن زُرقة طلاء الزنك الحديث. مكان رائع.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الغرب:

غنيّة بالفولكلور والتراث لكنّها فقيرة التربة. لم ير توماس كارلايل فيها غير التسوُّل والحجارة. ولم يختلف في هذا عن كروميل الذي كان يُرسِل المواطنين إلى هناك كبديلٍ عن الجحيم. وسكّان اليوم يتألّفون من 391000 نسمة، بينهم 75000 عُزّاب.

Twitter: @ketab_n

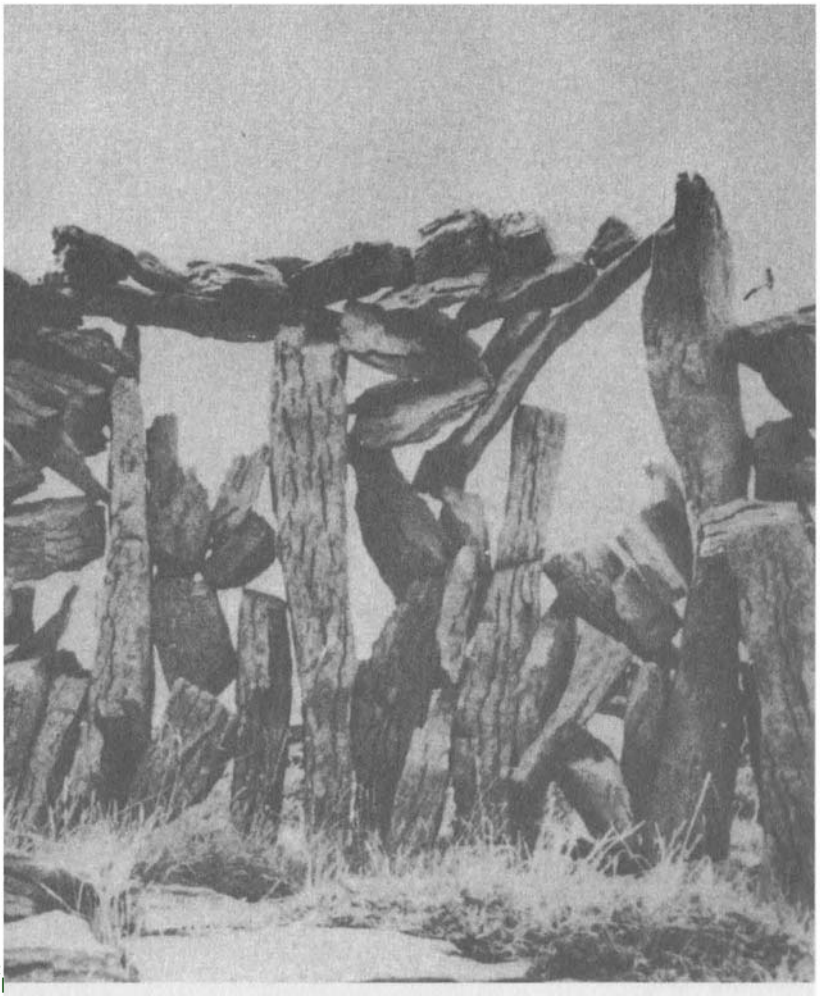

جدار حجري جاف، كوّنيمارا:

لغرب المأهول – حجريّ وقاحل كمقلع حجارة. الماشية تأكل كل شيء وأحيانًا يرى المرء خلف أحد الجدران بقعة صغيرة مزروعة بالشوفان الأخضر، أشبه بطاولة لعب صغيرة وسط جُرف صخري.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

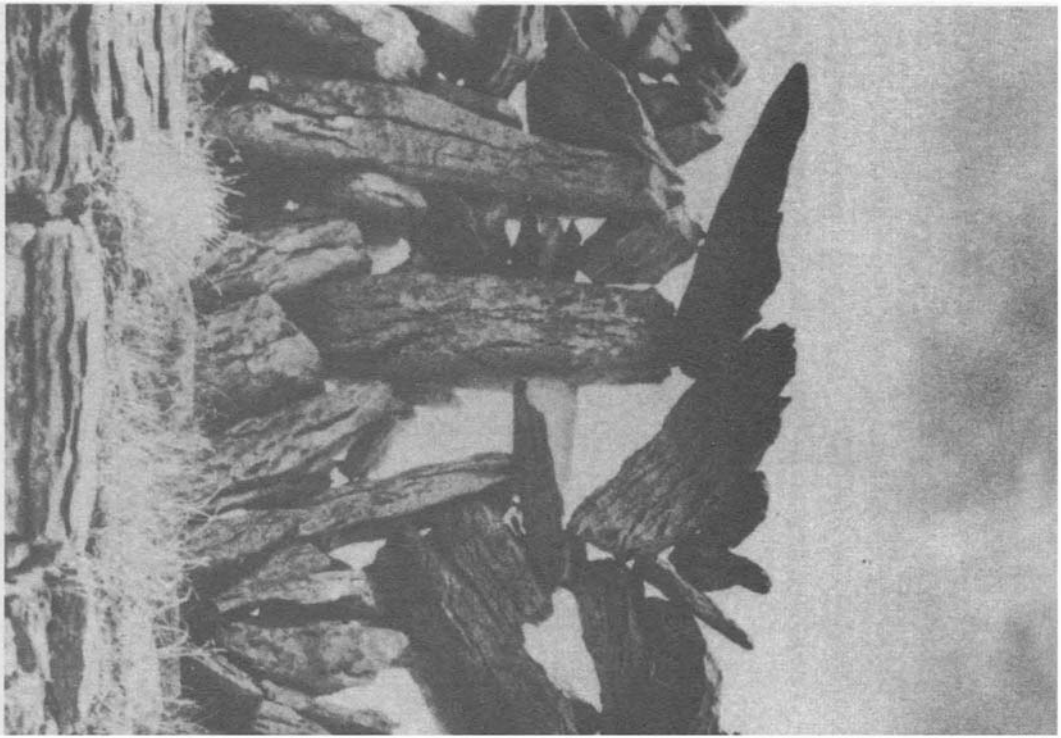

حقول البطاطا:

كانت البطاطا تُعتَبر الحمية الأيرلندية الرئيسة – وترِدُ في وصفة كل شخص في المكان. كان القدر يُسكَب على طاولة المطبخ، وكانت البطاطا تؤكل مع قشرها، باليد، بلا سكّين، أو شوكة، أو طبق ومعها مخيض اللبن. فإذا لم يتوفّر المخيض، يستبدلونه بوضع بصلة في إبريق من الماء من أجل النكهة وإضفاء القِوام اللبني. كان العامان 1847 و 1848 قاسيين عندما ضربت الآفة موسم البطاطا، واختُزِلَ عدد

Twitter: @ketab_n

السكان إلى النصف. في ذلك الوقت وصف الكاتب وليم كارلتون أيرلندا بأنها «منزل شاسع المساحة موبوء، مُبتلٍ بالجوع، والمرض والموت». واليوم، تتضمّن أطباق البطاطا كولكانون، واليانديز، البطاطا المشوية، والبطاطا المقليّة، واسكالوب البطاطا، وبطاطا مع البقدونس، وبطاطا بالويسكي، وبطاطا القش، وأعشاش البطاطا، وفطيرة البطاطا وخبز البطاطا.

Twitter: @ketab_n

امرأة عاملة مع طفلها:

عشائر العمال هي كلافي، شرلوك، دريسكول، كيسي، كارثي، كوفي وماكوين. إنهم يجتمعون مرة في العام في كيلورغلين في مقاطعة كيري، من أجل سوق البك. وهناك يوم للتجمّع، ويوم للتسوُّق ويوم الانتشار وخلاله يتلقّى تيس تاجاً من الأشياء المُبهرجة في ذكرى طقس وثني ما.

Twitter: @ketab_n

ألم، وورد في نعيه أنه كان فاسد الأخلاق في حياته ومات محروماً من الكفّارة، ومن جسد المسيح ومن التمسُّح بالزيت، كما تستحق أعماله الشريرة.

ومكثَ الإنكليز ووفقاً للمؤرِّخ سيلفستر جيرالدوس كمبرينسس[20]، أو جيرالد الويلزي، فعلوا ذلك مُخاطرين بحياتهم، ليس فقط بالحرب بل كانوا مُهدَّدين بالانحلال جرّاء اتّصالهم بالأيرلنديين المتوحشين، وكأنهم تذوّقوا من كأس سيرسه[21] المسموم.

كان كمبرينسس يخشى الله في كل ما يقول ما عدا موقفه من أيرلندا والجنس اللطيف. استثنى طبائعهنّ المتقلّبة والمتبدّلة، جاعلاً هدفه الرئيسي تلك الخسيسة كليوباترا التي جعلت أنتوني «ينبذ سلوكياته المعتادة ويُبدِّد وقته في فوضى فاسدة وحياة منحلّة». تفحَّصَ أيرلندا جسداً، تربةً وروحاً، وفقاً لمبادئه المُعقّدة، وأعلنَ أنَّ شعبها الأيرلندي «الفظ»، أعمى، ومنحلّ، وغير قابل للترويض، ومُتطيِّر، ومتديِّن، ومقيت، ومدمن على شرب الويسكي، وعابث، وصريح، وعاشق، وغضوب ويُطيل التفكير في الحرب. ثم تركها وهو يلعنها من كل قلبه مؤمناً بأنه يُنفِّذ مشيئة الله. وتمنّى أنَّ تحترق أراضيها، وينضب ثدياها، وتجوع ذئابُها حتى الموت على جوانب الطُرق. وأخيراً أثمرتْ لعنته. أصدر حُكمه الثقيل والعادل على ذلك الشعب ضيِّق الأفق والعنيد الذي رفضَ أنْ يتوجّه إلى الله بتديُّنٍ

---

[20] سيلفستر جيرلدوس كمبرينسس، ويُعرف باسم جيرالدوس دو باري (1146 - 1220) مؤرّخ ويلزي، أرّخَ ووصف تضاريس أيرلندا. من أعماله «طوبوغرافيا» - المترجم

[21] سيرسه في الأساطير اليونانية، هي الساحرة فائقة الجمال التي احتجزتْ أوديس على جزيرتها وحوّلتْ رِفاقه إلى خنازير . - المترجم

Twitter: @ketab_n

حقيقيّ، ورفضَ أنْ يتلقّى بركة الرب وعَبَدَ بدلاً عنه ذلك المسيح الدجّال الشرير، بابا روما.

بعد أنْ استقرّ الإنكليز في الأرض أخذوا يُدمرون بالتدريج الغابات في الأماكن كلها لكي يحرموا اللصوص والأوغاد من السكان المحليين من ملاجئهم ومواقع انطلاقهم. تبع ذلك إنشاء المُستعمرات، والتدمير، والتمرُّد، والتمرُّد المُضاد، وسن القوانين، وإنشاء الخوازيق، وإقامة التماثيل، وممارسات كروميل الوحشية، وسَوق الأيرلنديين إلى كونوت حيث الأرض صخرية ولا ينمو إلا القليل من العشب البري، والأعشاب الطبيّة ويبرز نبات لسان الأيل من بين الشقوق لكي تقتات عليه الحيوانات.

قال العميد سويفت[22]، الذي كان في استطاعته أنْ يُميِّز مجنوناً من آخر كما استطاع أنْ يُميِّز مُرابٍ من آخر، إنَّ مصائب أيرلندا لم تكن كلها منها بل ناشئة عن عددٍ هائل من الإحباطات.

لقد دوَّنَ تفاصيل عن اغتصابها، مُشيراً إلى أنه بوصفها أمّة لم تتلقَّ أخشاب الغابات، لا من أجل بناء المساكن ولا لإنشاء السفن التجارية، وأنَّ نصف دخلها الإجمالي كان يذهب بأكمله لفائدة إنكلترا، وأنَّ العائلات التي تدفع مبالغ كبيرة كإيجارات كانت تعيش وسط القذارة وتقتات على مخيض اللبن والبطاطا، وأنَّ الملك لم يزُرها أبداً، ويغيب عنها نائب الملك في غالبية أيام العام وأنه باختصار يمكن تشبيهها بـ «مريضٍ تناول عِقاراً مُسهّلاً أرسله أطباء من مسافة بعيدة».

---

[22] جوناثان سويفت (1667 – 1745): كاتب ساخر أنغلو- أيرلندي ورجل دين. أصبح عميد كنيسة القديس باتريك في عام 1713. من أعماله «قصة مغطس» 1704، و «رحلات غاليفر» 1726. - المترجم

Twitter: @ketab_n

كل شخص لديه ما يقوله عنها – كُتّاب مقالات ومسافرون ومُحامون وسفراء بابويون ورؤساء محاكم عليا – كلهم أدلوا بآرائهم وافتراضاتهم، وهكذا علينا نحن أنْ نصدِّق أنَّ الأيرلنديين كانوا ودودين، وعنيدين، وبخلاء، وأنَّ أولئك «السوقة» يميلون إلى شرب البيرة ويجرعون الـ quebath (أو الويسكي) بشراهة، وأنَّ الرجال والنساء والأطفال مُدمنون على تدخين التبغ بغلايين طول الواحد بوصتان ويُمررونها بينهم وهم ينطقون لفظَ «shagh»[23]، وأنهم يسعلون، وتختنق أنفاسهم، ومُصابون بارتخاء الأفخاذ، والكُساح والإسهال، ويُضيفون أوراق نبات الغار إلى البيرة لتُعطيها نكهة، ويطحنون شعيرهم بين حجرَين، وأنه لا توجد زواحف هناك، أو أنها إذا جُلِبَتْ فإنها تنفق في الحال. كانت للأكواخ أو أكوام الروث التي يُعيشون فيها جدران بعلوّ قامة رجل، مزوَّدة بدعامات يلتصق عليها التبن وأوراق النبات، ومجرّدة من المداخن والنوافذ بحيث أنَّ الساكنين يكادون يختنقون من الدخان. وملابس الأيرلنديات من السوقة فضفاضة وبعيدة عن التصلُّب، وهنّ لا يرتدين صدريات من باب كبح مسار الطبيعة أو توجيهها! كانوا يقون رؤوسهم من حرارة أشعة الشمس وانقضاض وابل المطر بلبس عباءة. وطعامهم كان همجياً بحد ذاته – كانوا متأكّدين من أنَّ القشريات البحرية هي لحوم، ويضعون الزبد داخل سِلال من الأماليد المجدولة ثم يدفنوه في مستنقع ليكون مؤونةَ الصوم الكبير ومن ثم يأكلونه وهو فاسد. وفي المواسم يأكل الرجل شريحةً من اللحم بيده من دون ملح أو طبق، بل إنهم يتناولون سمك السلمون من دون خلّ. لقد كان الأيرلنديون. ولطالما كان يُنظَر إلى أيرلندا بارتياب على أنها مسخٌ مولعٌ مع ذلك إلى حد النهم بالدخلاء.

---

[23] هذه رسم لصوت وليست كلمة ذات معنى.

Twitter: @ketab_n

قال شخصٌ يُدعى الدكتور تويس، ذهب إلى هناك في عام 1775، إنه «بالنسبة إلى تاريخهم الطبيعي فإنَّهم يتميّزون بضخامة سيقانهم، خاصة سيقان نساء العامة منهم». ثم يُتابع فيقول إنَّ تلك النسوة، الأشدّ بُعداً عن التحفُّظ بصورة مُثيرة للإشمئزاز، يتمتّعن بجاذبية فاتنة وأنَّ المسافر الذي ليس لديه إلا القليل من الوقت ليمكث معهنّ يُحاول أنْ يستمتع به قدر إمكانه. وفي دير مكروس[24] في كيلارني توتّرت أعصابه بشدّة لأنه ضُلِّل بصخور كثيرة، ووديان ظليلة، ومروج نضرة وبشجرة طقسوس تلقي عتمةً دينيّة. وسمع ولولة الأيرلنديين كأنها جُوار المفجوعين في حفل زفاف وفرَّ لينجو بحياته. وأثنى سكرتير سفير البابا على المحار لأنه اشترى ألف قطعة مقابل اثني عشر بنساً ونصف، واشترى أيضاً فرساً هرِماً مقابل خمسة جنيهات وكان يمكن أنْ يُكلّفه في إيطاليا مائة قطعة ذهبية.

بعد ذلك بمائة عام، اتّخذ وليم ميكبيس ثاكراى[25] موقفاً أكثر اعتدالاً، فوجد الأيرلنديين متواضعين ويُحبون الشخصيات العظيمة. ووصف أهالي دبلن وهم يتقرّبون من شخصيات نافذة صغيرة في فينيكس بارك التي يلفظونها فاينكس. ولم يتفوّق ثاكري في إعطاء الإكراميات مما جلب له الكثير من الكراهية من ماسحي الأحذية، والنُدُل وسُعاة البريد في أرجاء البلد كله. شاهد ووصفَ وجوه أهالي دبلن القذرة، من خلف نوافذ دبلن القذرة، وأطفالاً جالسين على الدَرَج المكسور كله، وعجائز، و «نسوة قذرات ورثّات»،

---

[24] موقع أثري يقصده السياح. - المترجم

[25] وليم ميكبيس ثاكراى (1811- 1863): روائي إنكليزي، وُلد في الهند. في الأصل صدرت رواياته مُسلسلة. من أشهرها «سوق الغرور» و «هنري إزموند» و«القادمون الجُدد» - المترجم

Twitter: @ketab_n

ومتسولين بوجوهٍ هوغارثيّة[26]. وذهب إلى لاينن هول وكان لديه من الحس السليم ما يكفي لجعله يرى أنه هائل الحجم، لا طائل من ورائه، موحشٌ ومُتهدم، وأنَّ تمثال جورج الرابع الذي يُشير إلى رُزم من قماش القمصان كان هزيلاً حقاً. وهناك آخرون كالسيدة آرسّينيث نيكلسُن، وهي سيدة أميركية انطلقت في عام 1844 لبحث أحوال الفقراء، فرأت شعباً طاهراً وسليماً، وقابلت لطفاً ضافياً، وفتيات جميلات مبتهجات بشعرٍ فاحم اجتمعن ليرقصن عند مفترق الطرق على وقع موسيقى مزامير القُرَب.

إنَّ الناس يقعون في حب أيرلندا. يذهبون إلى هناك ويتولّهون بها، يشاهدون الأكواخ البيضاء تستكين إنْ صحَّ التعبير تحت التلال، وسلاسل الجبال الزرقاء المتأمّلة، يتوّجها الضباب، وسياجات نبات الفوشية[27] في كيري، والكلاب النابحة، وسهوب ويست كلير الكلسيّة الطباشيريّة، إنها ظاهرة شديدة العناد حتى كأنّ مرتفعات ويذرينغ[28] انتقلت من الورق إلى المشهد الطبيعي. الزائرون يتكلمون ويتبادلون الأحاديث، يصطادون السمك، أو الطيور، ويأكلون الخبز الأسمر، يغوصون في آبارٍ مُقدّسة، يُقبّلون حجارة التمنّي، يُفتَنون لكنهم لا يرغبون في المكوث. لابد أنَّ هناك شيئاً سرياً كارثياً في بلدٍ يرحل عنه الكثير من الناس، يفرّون، وذلك الشيء بالإضافة إلى ضرورات اقتصادية هي التي أرسلت أكثر من مليون شخص على

---

[26] هوغارثيّة: نسبةً إلى وليم هوغارث (1697- 1764): نحّات ورسّام إنكليزي. معروف خاصة لسلسة المنحوتات التي يسخر من خلالها من شرور عصره ومصائبه. - المترجم

[27] الفوشية: شجيرة ذات زهرات حمراء وأرجوانية.

[28] «ويذرينغ هايتس»: الرواية الشهيرة التي ألّفتها الكاتبة إميلي برونتي، شقيقة شارلوت برونتي، صاحبة رواية «جين أير». - المترجم

Twitter: @ketab_n

متن سفن الموتى عندما ضربت آفة ذراعية محاصيل البطاطا في عام 1847، ومنذ ذلك الحين وهي تتنقلهم بأعداد هائلة.

أهي الوحشة، أم التوق إلى المغامرة، أم الكنيسة الكاثوليكية، أم الروابط العائلية الأقوى بين أفراد أي سلالة أخرى على الأرض؟ إنَّ موضوع الأم الأيرلندية الشهيدة والأب الأيرلندي المرح والصاخب لا يقتصر فقط على أعمال الكُتّاب المُطهَّرين بل هو شائع بين العائلات في أرجاء البلاد كلها. إنَّ الأطفال يرثون الذنوب الثلاثة (نبات النفّل[29]): ذنب آلام المسيح وصلبه، وذنب الأرض المنهوبة، والذنب السرّي اتجاه الأم التي يُدنّسها الأب الشره دائماً. هذا المشهد كله، وكل تلك التيارات الخفيّة ثقيلة الوطأة. هناك يأس يمكن للجمال الطبيعي أنْ يُولّده عندما يسود ارتباكٌ ثقافيٌ وفكريّ. والسؤال المطروح ليس أين ذهب أولئك الجان كل بل أين هم المفكّرون جميعاً الآن.

لا يُحب الشعب الأيرلندي أنْ يُكذَّب. وبسبب هزائمه المتكررة، أصبح ينطوي على حنق ينقضُّ على الغافلين كما يبرز راهبٌ فجأةً من بين شجيرات السياج. هناك مَنْ لا يستطيعون أنْ ينسوا الماضي وهناك أشخاص يتمنون بقوة لو ينسوه ويدفنوه في أحد تلك الأعماق المتجمّدة المقدّسة. وقد رأت مود غن مكبرايد[30]، وهي امرأة وطنيّة كان جمالها باستمرار مصدر إلهام للشاعر و. ب ييتس، أنَّ

---

[29] نبات النفّل: هو نبتة صغيرة يحمل كل ساق منها ثلاث أوراق خضراء، وهي رمز دولة أيرلندا. - المترجم

[30] مود غَنْ مكبرايد (1866 - 1953): شخصية ثورية أيرلندية، وقع الشاعر الأيرلندي ييتس في حبّها في عام 1889. وعلى الرغم من تقدّمه المستمر لطلب يدها للزواج، إلا أنها تزوجت من جون مكبرايد في عام 1903، ثم انفصلتْ عنه في عام 1905. ومن ثم أُعدِمَ رمياً بالرصاص بسبب اشتراكه في الانتفاضة. - المترجم

Twitter: @ketab_n

قلب أيرلندا ينبض بقوة ومأهول بشكل خفيّ، لكنها رأت أشياء لا يستطيع بشرٌ أقلّ حساسيّة أنْ يدركوا كُنهها. إنَّ البلد يتمتع بجمال يبهر الأنفاس ولكن هناك أيضاً حزناً لا يمكن إنكاره، حزن عزلته، حزن التحوُّل السريع إلى النزعة الماديّة، والبناء السيئ والرخيص، والمشاهد البصرية الهمجيّة والضمور الثقافي الذي يتسرّب مباشرة إلى الدماغ. القصائد والمسرحيات الجديدة قليلة جداً وتمثّل إما مواهب ضئيلة حزينة بسبب اغترابها، أو أعمالاً لا طعم لها تمثّل مؤشرات روح جماعيّة لشعب مختنق. لا فلاسفة عِظاماً، ولا أطباء نفسيين عِظاماً، ولا إنجاز عندما يُصبح المنطق هو الأسمى؛ صحيح أنَّ هناك موهبة أدبية فطرية عظيمة، لكنَّ المردود كان هزيلاً خلال الثلاثين أو الأربعين عاماً الماضية.

إنكَ تقول، «إنَّ أيرلندا الرومانسية ماتت واندثرتْ»، وأنت جالس تشرب شاي المساء في أثلون[31]، ومُتخَم بالكعك المُسطّح، وفطيرة التفاح وخبز الصودا. وهنا تتذكّر أنَّ ثور ألستر البُنّي نطحَ ثور كونوت الأبيض[32]، وترك أعضاءه التناسلية عند شاطئ النهر الذي بات

---

31 أثلون: بلدة في أيرلندا تقع على ضفاف نهر شانون. حالياً هناك منتجع وفندق سياحي فيها، أُقيمَ في الموقع الذي حدثت فيه الواقعة التي جرت ومذكورة لاحقاً.

32 في سلسلة حكايات ألستر، في الأساطير الأيرلندية، كان ثور كولي البنّي، المُسمّى دون كويلنغ، فحلاً عالي الإخصاب تقاتلت القبائل لحيازته. في الأصل كان ملكاً لأحد مربّي الخنازير، اسمه بود ديرغ، تشاجر مع مربي خنازير آخر. وانخرط الاثنان في القتال، وتحولا أثناء ذلك إلى مختلف أنواع الحيوانات والمخلوقات الآدمية، إلى أنْ أصبحا دودتين ابتلعتهما بقرتان، ثم وُلِدا من جديد على هيئة ثورَين، هما دون كويلنغ وفينبيناغ (أو ذو القرنين الأبيضين). أصبح دون ملكاً لمربّي مواشي من ألستر، ووُلِدَ فينبياغ وسط قطعان الملكة ميدب من موناغ، لكنه رأى أنه ينتمي إلى امرأة أقلّ منه شأناً فانضمّ إلى قطيع زوجها، إيليل. وكان لدى موريغان، المُلقّبة بالملكة العظيمة، أو الملكة المُرعبة، عِجلة أخذتها إلى كولي لكي يُخصبها دون.

Twitter: @ketab_n

يُعرَف بأثلوين، معبَر الأعضاء التناسلية. وعندما شرِبَ من موقع آخر ترك كبد خصمه، وفي موقع آخر ترك عظمتيّ الكتفَين، وهكذا أخذ يُبعثر أوصاله وأحشاءه، ويمنح كل موقع اسم المُعطى. وبعد أنْ حفر الأرض ومات، عقدت ميدب، ملكة كونوت المُحاربة، سلاماً مع ألستر مدة سبع سنوات لم يُقتَل خلالها أي أيرلندي.

كانت في مدينة أثلون حركة مرور مزدحمة كالمعتاد، وثمة مُلصَق يُعلن عن مهرجان للدراما وإلى جواره مُلصَق آخر يُعلن عن مُسابقة اختبار لكلاب الرعاة. وكانت هناك كاتدرائية، واستحكامات، وكما في كل بلدة أيرلندية هناك الشطائر المُحمّصة على المشواة السفلية. وتقرأ عن المهرجان الذي سيُقام وأنَّ الحدث الأكبر فيه هو انتخاب ملكة جمال، وعن أغان شعبية وقوانين ترخيص فضفاضة. أنت في قلب

وكانت نتيجة الإخصاب عجل ثور قاتل فينبيناغ وخسر أمامه بصعوبة. وعندما رأت ميدب ذلك قرّرت أنْ ترى فينينباغ يُقاتل والد العجل. وعندما اكتشفت ميدب أنْ امتلاك فينينباغ يجعل زوجها أشدّ ثراءً منها، قررتْ أنْ تُحقق التوازن بامتلاك الثور دون، فبعثت برُسُل مع هدايا سخيّة إلى ديري من كنوز الأرض، وأيضاً إلى لزم الأمر خدمات جنسية، إذا أعارها الثور مدة عام. فوافقَ ديري. لكنَّ الرُسُل سكروا وتفاخر أحدهم قائلاً إنه إذا لم يوافق ديري على طلب ميدب فسوف يؤخذ منه الثور بالقوة. وعندما سمع ديري هذا الكلام انسحب من الاتّفاق. فجمعت ميدب جيشاً من أجل سرقة الثور دون، وسارت به إلى ألستر. فتلبّستْ الملكة موريغان في هيئة بقرة وحذّرتْ الثور دون من الجيش القادم، ففر هو وقطيعه إلى سليفا غوليون، لكنَّ ميدب اقتفت أثرة وأسرته، لكنها خسرت العديد من جنودها تحت حوافره. لكنَّ البطل كوتشولين منع الجيش من أخذ دون إلى كوناغ وطالب بخوض معركة أخيرة. وهزم سلسلة من الأبطال على مدى أشهر. وأخيراً،وبعد معركة ضارية مع قوات ألستر، اضطرت جيوش ميدب إلى الانسحاب، لكنهم نجحوا في إعادة دون إلى كرواتشان. وتصارع دون مع فينبناغ. وبعد قتال طويل ومُرهق هزم دون غريمه، لكنه أُصيبَ هو نفسه بجراح مميتة، وراح يجوب الأراضي الأيرلندية ويُلهم الأماكن أسماءها، ثم عاد إلى كولي ومات هناك. - المترجم

Twitter: @ketab_n

أيرلندا ليس بعيداً عن دير كلونماكنويز، التي قرأتَ في المدرسة عن أنها أرض هادئة، وأرض جمال الورود. وتنتقل إلى البلدة التالية – شوارع متشابهة، تصادم سيارات، وساعة كبيرة ذات أربعة أوجه تُبيِّن أوقات متباينة، ورجل سكّير مع آلة هارمونيكا يعزفُ لحناً راقصاً، وسيارة نقل تنقل أنابيب غاز بعبوات جديدة وأحد رجال الشرطة يتفحَّص رقم رخصة سيارة متوقفة بما أنه في هذه المنطقة السياحية لا مكان الآن آمناً من قنبلة على هيئة حزمة من الورق البُني أو دميّة رثّة.

يقول لك سائق السيارة، متجاهلاً تنافر أقواله أو السرعة التي تتبدَّل مع حركة أفكاره، «إنهم يقودون السيارات كما ينكحون، بأي أسلوب قديم». ويُخبرك شيئاً آخر وهو، أنَّ القساوسة يختلطون بعامة الناس وأنَّ أحد القساوسة فتحَ «باب رواقه» لزفاف يُقام في ليمريك وفعل كل شيء ما عدا الطلب من العروس أنْ تضاجعه. ولهذا يريد أنْ يُسجل تعبير وجهك ويمنحك الفرصة لتسجل كامل تعبير وجهه. وتُشير إلى المقود وتُحدّق مباشرة إلى الصحيفة.

إنَّ أسقف كورك، المُبجَّل جداً الدكتور لوسي، يخشى أنَّ المقاطعة لا تتعرَّض لخطر التلوُّث من تجهيزات البترول في مرفأ بانتري ولكنَّ الخطر الأسوأ هو تلوُّث أدمغة الناس وأرواحهم من خلال الكتب، والصحف والأفلام التي تنتشر في أرجاء أيرلندا. وفي موقع آخر تقرأ أنه في الواقع وبسبب صمّام مُعطّل تسرَّبَ ألفان وخمسمائة غالون من البترول إلى مياه البحر واستخفَّ مستشارٌ محليّ بالأمر قائلاً إنه لا يُسبب ضرراً بالغاً وإنَّ الله ساندهم وإنه لا بدّ أنَّ البعض كانوا يُصلّون.

Twitter: @ketab_n

ويُتابع السائق ثرثرته حول نجاحه في تزيين سيارته المُستأجَرة بالأشرطة من أجل الأعراس، وكيف أنه يعمل أيضاً في مجال الألبسة المُستعمَلة ولذلك يستطيع أنْ يُفشي سراً مفاده أنَّ الملابس كبيرة الحجم مطلوبة أكثر لأنَّ القرويات ضخمات الأجساد بسبب ما يتناولن من مواد نشوية. ويقول لك أثناء اجتياز ثُكنة عسكرياً، أو مدرسة أو إصلاحيّة، «يا له من بناء مهيب رائع». وكل شيء يُقابَل بالدهشة وحديث لا ينتهي وتتساءل ما الذي يتمناه الصُمّ من شعب أيرلندا.

المطر من جديد، وحقول مُبللة، وجدران مُبللة، وأقواس قُزح تتسابق عبر صفحة السموات، الحصاة الخالدة أو كوخ من الآجر الذي يُفرِط القسيس في مدحه للحكومة المحلية بوصفه مُساهمةً في المشهد الأيرلندي الطبيعي المتنوّع. السُحُب والغربان في السماء متناقضان. وكثيراً ما يظهر تمثال ضخم أبيض من الجص، تُحيط به هالة من أضواء النيون، أو ليسوع أو لمريم أو لذلك المخلوق الخالي من العيوب المسمّى حسناء أيرلندا ممدودة الذراعين.

تجتاز وديعة حمراء وصفراء من براميل القار تدل على أنَّ ثمة أعمالاً تجري وأمواجاً واهنة من أطفال منفردين عائدين إلى منازلهم ويجرّون حقائبهم المدرسية. وترى في كل مكان وسائل راحة المنزل الريفي وإشارات تتكلم عن حقوق صيد السمك. وتجتاز كنيسة صغيرة جديداً من الإسمنت المُرقّش بألوان مُركّبة كالهلام. دوامات خيل وحجارة قرميد قبيحة تتوّج مقهى جديداً ومن ثم مفاجآت شنيعة مثل قطيع من الماشية أو جرّارة تتخبَّط على الطريق العامة والسائق يُعلنُ أنَّ هذا كله من عمل الشيطان.

Twitter: @ketab_n

من المفترَض أنَّ الرحلة تتجه شمالاً إلى مقر كونور، ملك ألستر، لكنها قوطعتْ فجأةً عندما صرخ أحد المسافرين الآخرين الجالسين في الخلف، «دخان، دخان». ويندفع سائقك خارج السيارة دون أنْ يُطفئ المُحرّك، ثم يندفع عائداً ليقول إنه هو أيضاً شاهد الدخان لكنه لم يرغب في التعليق على الأمر في حال ما اعتقد أنه ربما يرى شيئاً. وعلى مسافة ميل لم يُبيِّن مرأب أكثر من فتاة شابة تحمل مقلاة للبيض مملوءة بالماء سكبت محتواها في المُحرِّك بتباهٍ، والسائق يعتقد أنها ستكون على ما يُرام، وأنها ستلعقه. ومن دون استشارة سابقة يتجمَّع الرجال عندئذٍ في سقيفة قريبة ليستريحوا ويتركونك لتفكّر في كونور الذي كان يحمل في جمجمته رأس ملك عدو وعاش حياته حاملاً ذلك الرأس الثاني داخله مُثبَّتاً بخيوطٍ من ذهب. ولكن في يوم صلب ربنا لاحظ الظلام الاستثنائي فاستدعى كاهنه ليسأله عن معنى ذلك، فقال الكاهن باكاراك إنَّ ابنَ الله قد صلبه اليهود، وإثر ذلك انتابتْ الملك الذي يحمل رأساً داخل رأسه

نوبةٌ رهيبةٌ من التوتر العصبي، واندفعَ نحو أيكة وراح ينقضّ عليها بالسيف ليُبيِّن كيف سيتعامل مع أولئك اليهود الأشرار، وبسبب فرط حنقه قفزت الكتلة من رأسه، واندفع دماغه خارجاً ومات إثر ذلك.

ألم يرَ الشاعر إدموند سبنسر[33] أمّاً مُرضعة عجوزاً تشرب من الدم النازف من رأس مرو أوبراين لدى إعدامه في عام 1570

---

[33] إدموند سبنسر (1552 – 1599): شاعر إنكليزي، أشهر قصائده «الملكة الحسناء»، وهي قصيدة ملحمية تحتفي بالسلالة التيودورية وبالملكة إليزابث الأولى. يُعتَبَر أول البارعين في الشِعر الإنكليزي الحديث. - المترجم

Twitter: @ketab_n

عندما كان سبنسر يبلغ الخامسة والعشرين من العمر. وألم تكن أغصان الأشجار الشائكة مصبوغة باللون الأحمر غريب الشكل لأنها مُلطّخةً في مُحاكاة لدم المسيح النفيس، والزهرة القانية الاحمرار تُدعى ديورا دياً، أو دموع المسيح.

تقول باستخفاف إنكَ أيرلندي وفي ماضيك كل هذا بالإضافة إلى الكلام المبهم عن البجعات الشجية المتكبّرة وصهيل المُهر وميلك إلى الغرق في الكآبة والضياع.

حولك في غرفة مُزوَّقة مكسوّة بقطع صغيرة من سجادة منسولة هناك جراء صغيرة تلهو، وهناك مذبح مُكرَّس لسيدتنا مُزوَّد برؤوس من ورود اصطناعية حادّة كالشوك، وستة أطفال صغار – السكان – يتفرجون على شيرلي تمبل[34] في التلفزيون.

وتتدخّل لتمد يد العون ويُخبر السائقُ المرأةَ أنه يوم مزعج من أوّله ويأمل في ألا يُضطر إلى إحضار مُحرّك جديد. ويستهلك الأطفال عصير البرتقال ويقول الوالد، البارع في الألعاب، كلما تجشّأ أحد الأطفال «قُلْ أنا آسف». ليس هناك أي مجال لاستئجار سيارة في المناطق المجاورة. كل سائق إما ذهب ليزور أقربائه في المستشفى أو إلى قدّاس المساء أو «خرج ولم يعُد أبداً». هذه المعلومات تصلُ إليك عبر المرأة حَسَنة النيّة وهي تقدّم تعازيها للزوجة أو الأم أم الحماة التي تتحدث معها عبر الهاتف.

---

[34] شيرلي تمبل (ولدت عام 1928): طفلة هوليوود المعجزة. مثّلت منذ طفولتها عدداً كبيراً من الأفلام. بعد أنْ تركت التمثيل في أوائل الستينات شغلت مناصب عديدة في السلك الدبلوماسي الأميركي. - المترجم

Twitter: @ketab_n

وفجأة تشعر أنَّ عليك أنْ تذهب. نعم تريد أنْ تعود ولكن مع مرور الوقت تشعر بأنهم سيكبّلونك بمعتقداتهم وبآرائهم المتعنّتة. وتقرأ أنَّ رابطة النساء القرويات تؤيد العودة إلى عصا التأديب ويعتبر شخصٌ «واسع الأفق» فيلم إنغمار برغمَن[35] «برسونا» فيلماً قذراً ورخيصاً. تطرَّق إلى الحساسيات الدينية وسوف تجد القلوب الأيرلندية تغلي في الأعماق. ماذا كان يمكن للشاعر ييتس أنْ يقول الآن؟ - لقد احترقَ ذِكره الأدبي وصار رماداً بلا طائر فينيق.

وتقول بخفّة إنكَ أيرلندي، وتُعزى إليك الميول جامح، ولعوب، وسكير، مُتطيِّر، لا يُعتمَد عليك، ومتخلف، ومتزلِّف، وتنتابك نوبات غضب، في حين أنكَ تعلم أنكَ في الحقيقة مسكونٌ بحشد من الأشباح، أشباحٌ الصِلةُ الداخلية بها متكررة، ومُربكة، ومُتحدّية كأي صِلة بأي كائن حي. ولقاء المرء أحد أقربائه معناه تحرير بحرٍ كامل من الانفعالات العاطفية. وعصر ذات يوم كنتُ أتمشّى في مدينة لندن، ولدى اجتيازي موقع بناء أبطأتُ خطوي لكي أحمي عينيّ من احتمال سقوط حبيبات من الصخر الرملي. سأل فتى من مقاطعة روسكومون «هل أنتِ سعيدة؟»

قلت «ليس كثيراً».

فأشرق وجهه لدى سماع كلام امرأة قروية من بلده.

---

35 إنغمار برغمن (1918- 2007): مخرج سينمائي ومسرحي وتلفزيوني سويدي. احد أعظم المخرجين المؤثّرين في السينما العالمية. أخرج 62 فيلماً وأكثر من 170 مسرحية. الفيلم المذكور، «برسونا» يُعتبر أحد أعظم الأفلام في تاريخ السينما، لكنه يحتوي على مشاهد غاية في القسوة، وأحياناً إباحيّة: ويتحدث عن العلاقة بين ممثلة تمر بأزمة وممرضتها، وعن العلاقة الجنسية بينهما. - المترجم

Twitter: @ketab_n

«هل هناك أمل في تناول شاي الساعة الرابعة؟»

قلت (كان يجب أنْ أقول شيئاً): «مستحيل».

قال «لن تنسينا، أليس كذلك؟»

قلت «لن أفعل».

ثم تذكّرتُ رجلاً آخر من روسكومون كان في إحدى الحانات المُقفِرة ذات صباح في دبلن، مجنون على طريقته سكنَ هناك على مدى سنوات طويلة، مع شخصَين آخرين أو ثلاثة آخرين، رجال في غرف في الطابق العُلوي على أسرّة مفردة مُسندة إلى الجدار، والريش يخرج من خلال قماش الوسادة والقلب الأقدس في مكانٍ ما وكل مكان. قال لابني «امسح هذه الابتسامة عن وجهك»، وكان راغباً في ضربه لأنه دمث. قال، وعيناه تقدحان شرراً، إننا «قذران» وإنه مع ذلك يعرف موضوع ومضمون وهدف كل جُملة. كانت المرأة الواقفة خلف النضد تشرب الشاي وتتناول قرص أسبرين وترتعش على الرغم من ارتدائها عدد من السترات. شرب ويسكي وأنَّبنا لأنَّ لدينا «نادلاً». الساكن الآخر الذي أمضى هناك عشرة أو خمسة عشر عاماً رحل مع الهستريا التي تُصيبه. وفي الطابق العلوي كانت هناك نافذة عليها علامة طلق ناري وبعض الخدوش من زجاج قنينة حيث حفر أحد قطّاع الطرق اسمه على النافذة. هنا أيضاً كانت توجد طاولة جلس عليها روبرت إيميت[36] في عام 1800 وخطّط للقيام

---

[36] روبرت إيميت (1778- 1803): ثائر وطني أيرلندي. قاد تمرّداً فاشلاً ضد الاحتلال الإنكليزي. أُسِرَ وحوكمَ ثم شُنِقَ وقُطّعت أوصاله في شارع توماس في دبلن. كان آخر شخص يتلقّى مثل تلك المعاملة الهمجية. - المترجم

Twitter: @ketab_n

بثورة أُجهِضَتْ وتحوّلت إلى مجرد شجار. وكانت الطاولة قد كُدِّستْ بعيداً مع الماضي.

هذه أرض غودو[37]. زر الجرس الصغير مع رقعة «لخادمات المنزل فقط» لم يعُد يعمل والأروقة الباردة تؤدي إلى غرفٍ موصدة وعلى الأبواب الزجاجية وُضِعَتْ قطعة من قماش الكريتون لتردّ المتلصِّصين. وليلاً أثناء فصل السياحة هناك عازف بيانو وعازف كمان وهذا، بالإضافة إلى جولات واسعة من الشراب، وأزهار شاي اصطناعية شائكة وأغاني حب آسرة تُقدَّم للزائرين، وليس الغرف الباردة أو منبسطات الدَرج الآجرّية أو المرحاض العتيق الطراز وصحف مُبعثرة حول المقعد، ليس زجاجات المياه الساخنة أو الرجال بشعور قصيرة جداً، وهكذا ينبغي أنْ يكون الأمر.

ولكن عندما تكون أيرلندياً تعرف كِلا الاتّجاهَين وتتزعج بصورة غريبة من كليهما. تتزعج من الدخلاء الذين يتوقعون أنْ يروا نسختهم الخاصة عنك – يا له من قصف ظريف، وتتزعج أكثر من السكان الأصليين الذين يريدون منكَ أو من أي شخص أنْ يخلّصهم جسدياً من مستنقعهم ويأسهم ويحملهم مباشرةً إلى السماء على متن عربة تجرها الخيول. وتقول بخفّة إنكَ أيرلندي وتجوب شوارع لندن عند الساعة الرابعة وتفكّر في كيف تنبّأ بيتس بهذا الأمر[38] وتجوب الشوارع دون أنْ تجد أي صعوبة في أنْ تستحضر من جديد الرياح التي تهزّ محصول الشعير. وعندما تسطع الشمس فعلاً هناك تبدو متلألئة بإشراقٍ خارق، وهذا العامل

---

[37] نسبةً إلى مسرحية الكاتب الأيرلندي صموئيل بيكيت «في انتظار غودو»

[38] الإشارة هنا إلى قصيدة بيتس التي يصف فيها شوارع لندن

Twitter: @ketab_n

بالإضافة إلى تقاليد الضيافة، والجان، والقوارب، والإوز الذي يوضَع داخل المدخنة ليُنظّفها، حسب دليل يارا وبيغورا السياحي، كتب عنها باستفاضة كل مَنْ هبَّ ودب من الكُتّاب. وتقول كتيبات الدليل السياحي بلا مبالاة تبرعُ فيها كتيبات الدليل السياحي: «هناك رخاء جديد ينتشر في كل مكان ويمكن الإحساس بشعور التفاؤل في موقف الناس». وتتابع بالتحدث عن الموضة، والأناقة والإرث، وعن جويس وبيتس وبيهان[39] (لا يحصل أي شاعر حيّ على إكليل غار)، والعالم المسيحي، ونُصُب عمود نيلسن[40] الذي، كما يقول، يُعتبَر نسفه في عام 1966 «دليلاً على المشاعر القاسية التي لم تَخمُد تماماً في نفوس الشعب الأيرلندي». ويتغاضى عن إخبارنا أنَّ الرأس الحجري موجود في أسفل غياهب أقبية بلدية المدينة، ملفوفاً بكيس قديم، وأنه منذ ليلة سقوطه استعمله الطلاب من أجل الترويج لإحدى الرقصات ومن ثم هرَّبه إلى لندن أحد تجّار العاديات الذي سألَ الحشد أثناء تناول طعام الغداء إنْ كان هناك مَنْ يرغب في شرائه. والكاتب الذي كان مستعداً لقضاء يوم من التأمُّل فيه كان مايلز نا غوبالين[41]، الحكيم، والمُفكِّر، والضليع

---

[39] بريندان بيهان (1923- 1964): كاتب أيرلندي، وناشط في الجيش الجمهوري الأيرلندي. من مسرحياته «الرهينة» 1958. - المترجم

[40] هوراشيو نلسون (1758 – 1805): قائد بحري، أصبح أميرالاً بعد معركة رأس القديس فنسنت، وفي عام 1798 كاد يُدمِّر الأسطول الفرنسي في معركة النيل. قُتِلَ في معركة ترافلغار عام 1805 بعد هزيمة أسطول فيلنوف. - المترجم

[41] مايلز ناغ وبالين، الاسم المستعار للكاتب براين أونولان (1911- 1966): روائي وكاتب ساخر أيرلندي. أشهر رواياته «في سويم- تو- بيردز» و «رجل الشرطة الثالث». - المترجم

Twitter: @ketab_n

اللغوي، الذي عمد في مقالاته الصحفية إلى توجيه انتقاد لاذع إلى شعب أيرلندا البسيط، مُعتبراً أنهم جامعو لفت. هذا الرجل نفسه أبدى في رواياته احترامه لمزاياهم الغريبة جداً وحوّلهم إلى أبطال هزليين.

لكنَّ الكُتّاب والشعراء دائماً يتكلّمون بتعاطُف طبيعي أكثر مع المكان، وإذا أردتَ أنْ تشعر بأوجه أيرلندا العديدة تستطيع أنْ تفعل ذلك، مثلاً، في دليل سمرفيل وروس، في وصف يوم صيد عندما «يجتمع الصقيع وأشعة الشمس ويتغلغلان في الرأس كشمبانيا مُثلّجة، ولا يكون حقل الصيد أكثر من امتداد طويل من الأرض السبخة والمستنقع». ويهطل عليك رذاذ من المطر، وهناك اضطراب كلاب الصيد، والراكبون، والمشاهدون في عربات الخيل أو على متن الدراجات أو السائرون على الأقدام، والأزقة المملوءة بالحجارة وأيك الرتم وضفاف العشب العنيد الذي يتعسّر عبوره. وتقرأ وصف فرانك أوكونر[42] عن جولة بالدراجة في أرجاء مقاطعة كافان – بحيرات زرقاء، هِضاب صغيرة متواصلة وممتدة، وريف كئيب نباته مُعاق قال عنه إنه «خليق بواضعِ خطط وليس برسّام». ريف لا يُشبِع

ولَّدَ فيه إحساساً بحيوية رقيقة. وقال ج. م سينغ[43] إنه ندِمَ على كل ساعة أمضاها بعيداً عنها وعلى كل ليلة عاشها في المدينة. وتعرَّفتْ

---

[42] فرانك أوكونر (1903- 1966): كاتب قصص قصيرة وناقد أيرلندي. - المترجم

[43] ج. م سينغ (1871- 1909): كاتب مسرحي أيرلندي. ألّفَ مسرحياتي بالأيرلندية المحكية الحيوية. من مسرحياته «راكبو البحر» و «عابث العالم الغربي». - المترجم

Twitter: @ketab_n

إليزابث بوين[44] إلى المشهد الطبيعي ومزاج شمال شرق منطقة كورك عندما كتبت تقول في قصّتها «ليلة صيف»:

«تبدو أكوام التبن، التي أطلقها وهج القمر، كأنها تطفو فوق العشب المتأخر: تنفذ نضارته في الجو. على مسافة قريبة تسطع التلال التي تكتنف جنباتها الغابات تحت الضوء كتلال من عالم آخر – والوقوف عليها بهجة من السماء، حيث يبدو أنّ لا قدمَ وطأتْ، على المسافات الفاصلة بين الغابات الناعمة كالبودرة المنثورة فوق الذهب. وعلى تلك التلال بدتْ ورود متسلّقة في حدائق الأكواخ على طول جوانب الطريق أرضيّة – شديدة القُرب من العين. والطريق كانت أيرلندا».

في بلد مُكرّس بشدة لمنع الكتب من المُذهل وربما من المناسب أنَّ الأدبَ لا زال مُحترماً وأي حارثَ أرضٍ في أي مكان قد يسرد على مسمعك قصة «حصار ليمريك»، أو يحكي لكَ عن طيران الإوز البري، أو عن الجنود داخل خيامهم قبل خوض «معركة فونتنوي» مُستحضرين مسقط رؤوسهم مقاطعة كلير:

طوال الليل نحلم بك وفي اليقظة نعتقد أننا هناك.

في الحلم الشجاع واليقظة الحمقاء لن نرى كلير أبداً.

تلك كانت منطقتي. على بُعد بضعة أميال من مسقط رأسي كان مقر قصر براين بورو[45] السابق – كينكورا – الذي كنا نغني عنه «آه يا كينكورا، أين براين العظيم وأين الجمال الذي كنت ذات يوم تتصف به؟». الطريق القريبة كانت مُظلمة ومحمية بقبّة كثيفة من الأشجار المتشابكة. كان هناك ممشى للتنّزه ، أخضر ومكسواً

---

44 إليزابث بوين (1889- 1973): كاتبة إنكليزية من أصل أيرلندي. من مؤلفاتها «موت القلب». -المترجم

45 براين بورو (941 – 1014): أحد ملوك أيرلندا.

Twitter: @ketab_n

بالأشنة من تشبّعه بماء المطر، وكانت الأشجار تصدر حفيفاً، وأوراق الأشجار تصدر حفيفاً، والرجل الذي يسكن في عزبة قريبة كان مُراقباً للطيور ومعروفاً عنه أنه دائماً يضع ريشة جديدة في بطاقة قبعته. وفي العزبة المجاورة عاشت سيدتان تقومان بتعليب وحِفظ الأطعمة بنفسيهما، وكلا الحصنَين على جانبيهما بوابات عظيمة وأعمدة من الجص المُزخرَف. وفي الداخل كانت مساكن ببوابات صغيرة منخفضة كما في الحكايات الخرافية ذات نوافذ بألواح من الألماس والمداخن فيها دائماً تنفثُ دخاناً. وأثناء نزهة بالسيارة هناك في واحدة من نزهات الطفولة التي نوعد بها مُطوّلاً، ولا تُنسى أبداً، ويُطلب منا أنْ ننتبه إلى كينكورا وفجأةً أصابني دوار، وأصبحتْ الرؤية مستحيلة عليّ، من ناحية بسبب الإثارة، وسرعة السيارة، ومن ناحية أخرى بسبب الظلام، وممشى التنزُّه. لقد فقدت العينان قدرتهما على التركيز ولم أتمكن من رؤية القلعة. وانطلقت السيارة إلى كيلالو حيث كنا سنشاهد جسراً أُطلقَت النار فيه على أربعة من الصبية المحليين، وبيتاً عائماً جديداً يملكه رجلٌ إنكليزي. وتذكّرتُ القصيدة، المرثاة الجميلة التي احتفت بالمكان، وأضحتْ القصيدة كائناً حياً أكثر من المَعْلَم العابر الفعلي:

أنا ماك لياغ، واسمي مكتوب على البحيرة.
غالباً إلى هناك، إلى ذلك القصر الذي بهت جماله،
يأتي براين ليدعوني، وكنت أذهب إكراماً له
آه، ما أشد حزني! لأني سأعيش، وبراين ميت!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

2. مسقط رأسي.

لقد وُلدتُ ونشأتُ في بلدة تقع على حدودِ بلداتٍ أخريات توازيها بعدم تميُّزها. إنها أرض خصبة جداً، بعض الحقول محروثة، وغالبيتها مزروعة بطاطا، البطاطا تُبذر مرّتين في العام والنتيجة أوراق خضراء نضرة كريش الطاووس إلى أنْ تهطل الأمطار وتُزيل كبريت النحاس. وخلال فصل الصيف يرى المرء من أي نافذة رصيف تحميل السفن وزهرة الشيخ، مزدهرة، شامخة، وآلة زراعية صدئة قديمة غارقة وسط الأعشاب وأحياناً ثعلباً يشق طريقه بسرعة نحو خمّ الدجاج. وكانت هناك خِممة دافئة، لطيفة، وخنزيرة، وثورٌ مُسيطرٌ يثير رعب الجميع في حقلٍ أو فناءِ مزرعةٍ جُلِبَتْ إليه الأبقار البنيّة الكارهة التي في الجوار كلها.

كان الثور قد ظهر أيضاً في الميثولوجيا وكان السبب في نشوب حرب. فذات ليلة جلست الملكة ميدب في السرير، وبعد أنْ أجرت بعض المقارنة وجدت أنها وزوجها متطابقان في ما يملكان من سفن، وخواتم الأصابع، وميداليات، وتيجان، وقطعان الماشية، من خنازير، وأحصنة وماشية متنقّلة، ولكن كان في حوزته ثور أبيض فرّ منها.

Twitter: @ketab_n

غضبتْ. ولكي تُصلح الأمر انطلقت لنيل ثور كويلغن البُني، وإبّان بعض المقايضة الملتوية نشبت حرب كانت مُدمّرة، ودموية، ونتج عنها إحساس عارم بالعار، والخزي والخراب، إلى درجة أنَّ أحد أفراد قبيلتها اضطُرَّ إلى القول إنهم تبعوا «ردف امرأة مُضلِّلة». إنَّ كلمة ردف تُثير القشعريرة في المرء، رعشة الإحساس بالعار.

كانت الحياة متّقدة، منغلقة وكارثيّة. كان الغذاء الروحي يتألّف من جسد المسيح المصلوب. وآلامه كانت تتفجَّر في كلِّ فكرة، وكلمة، وعمل وإغفال، وأحياناً في مخيّلة الطفولة الجامحة يبدو للمرء أنه يلمح السيد المسيح فوق تلٍ ممدوداً على صليب بين لصَّين، وامرأة تقف عند أسفل قدمَيه، يعتصرها الألم والبكاء. وفهمنا لغز آلامه من القبر الذي جُثّي فيه جسده. وُصفَ لنا كيف أنه بعد أنْ جُلِدَ سُمِّرَ على الصليب، مسمار واحد غُرِزَ في القَدَمَين، وبرزت رُكبتاه، وتغضَّنتْ عضلات صدره وانبجسَ فيضٌ من الدم والمصل من القلب الأقدس الذي تلقّى طعنة قاتلة من رمح. وكأنَّ هذا لم يكفِ لأنَّ الدم تدفّقَ بخطٍ ملتوٍ عبر جبينه بسبب التاج المجدول من الشوك. والمرء يُحبه أكثر من أي شيء أو أي إنسان ظهر بعد ذلك. وهو يحب المرء وأحياناً يحدّثه بهمسٍ لحوح عن أهمية الطيبة. وأنْ يكون المرء طيباً يعني أنْ يكون نقياً ومع ذلك تنسب الصلواتُ اليأسَ الجسدي المتهوِّر إلى الحب الإنساني:

«يا ملك العذارى وعاشق العفّة والبراءة، تلاشَ في جسدي، بنَدَى بركاتك العُلوية، فليحلّ فيَّ وقود الشهوة الشريرة، المُعادلة لنقاء الروح والجسد. أخمِد في أوصالي شبقَ اللحم وكل الانفعالات المؤذية، وهَبني عفّةً حقيقيّة ووافية مع هِباتك الأخرى التي تُرضيك في الحقيقة، لكي أُقدم لك بجسدي الطاهر

Twitter: @ketab_n

وقلبي النقي أُضحية الحمد. إذ بأي ندمٍ من القلب وسيل من الدموع، بأي وقار وخشية، بأي عفّة جسد وطهارة روح، ينبغي الاحتفاء بتلك الأضحية القُدسية والعُلوية، حيث يؤكل لحمك حقاً، ويُشرب دمك فعلاً، حيث الأشياء الأدنى والأرقى، الدنيوية والعُلوية كلّها، تتحد، حيث تحضُرُ الملائكة القدسية، وتظهر أنتَ بأبهى صورك وأشدّها إبهاراً كأضحيةٍ وككاهن.

«في يوم الجمعة العظيمة يُقبِّل المرء الصليب الضخم المنكفئ ويشعر بجاذبيته ويُحدِّق إلى المذبح الكئيب المُجرّد من الأزهار. يُقبِّل وجنة أمّه الشاحبة ويُفكِّر في المهلبيّة، وبين حينٍ وآخر يُقبِّل خِلسةً صديقةً له. كانت القُبلة شيئاً خطراً تنشأ في عمق الحنجرة، وتتشكّل على الشفتين وهذه في الحقيقة هي أضحل مظاهرها. وجه يحمل المشاعر كلها، يكْبُتُ ما تكنّه للآخرين، لكنه لا يبوحُ، بل يتحوَّلَ إلى تكشير أو أنّكَ تمدُّ لسانكَ خِلسة بعد أنْ يُدير أحدهم ظهره. ذلك كان إثماً، كل شيء تقريباً كان كذلك، وتكون هناك عقوبة وقد يصل الأمر إلى قطع لسانك بسكينٍ نحت سوداء النصل يُقطّع بها خبز الصودا وشرائح اللحم، وبها يُقطع رأس الديك في صبيحة يوم السبت لكي يُقدَّم على مائدة غداء يوم الأحد. وكان جسم الديك يظل يرتعش حتى بعد أنْ يموت بفترة طويلة، وينتفض راقصاً على طول الدَرَج الحَجَري، حيث يوضع لكي يُنتَفَ ريشه بجوار مصرف المياه.

كانوا أناساً رائعين أولئك الراشدين بفكاهتهم المُبهمة. وجوه مختلفة. بعضها بفكوك، وبعضها الآخر بأعناق رخوة كأعراف ديوك الرومي وبعضها جامد كشجرة الدردار. لا تشبه في شيء صورهم المنتشرة في الخارج، لأنها مملوءة بالخداع والزخرفة

Twitter: @ketab_n

والمداهنة. كانوا ميّالين إلى الصراخ. ربما كان عليهم بتلك الطريقة أنْ يُحاربوا العناصر الأولى، بما أنَّ الريح كانت شيئاً هاماً، فهي تُطيح بالأشجار وتُطيِّر الأسقف أو تُثير عواصف عاتية من الهباب أو تجعل الأعشاب تسقط من المداخن وتتدحرج. هذه الأشياء كانت أكثر ما تحدث أثناء الليل، تلك النُذُر. كانوا يختبئون تحت الأغطية طلباً للحماية، والأمان. وخارجاً في الحقول كانت الأبقار تخور، وتنضمُ معاً، يخور كل منها للآخر، مُصدرة أصواتاً جذّابة كصوت الأم في الهواء موحّدةً بين الحقول، وبين القطعان.

يومان أو ثلاثة في العام كانت تُعتَبَر أحداثاً كُبرى، وليس كثيرٌ منها كان يمرّ دون مطر أو نبأ عن جنازة. ودرس الحنطة كان «حَدَثاً» ويخرج ساكنو الأكواخ إلى الفناء مع حميرهم وعرباتهم لكي يُحضروا التبن من أجل إعداد الحشيّة، وتبن للحيوانات، تبن للخنازير؛ بينما أكياس الذرة المدروسة حديثاً تُربَط وتُكدَّس معاً، استعداداً لإرسالها بسيارة النقل إلى المطحنة وكسب النقود التي كانت دائماً تُطلَب مُقدَّماً على أي حال. وكان على العمال أنْ يتناولوا ثلاث وجبات دسمة بغضّ النظر عن نوع الحصاد – غالباً ما كان الشعير مَخضُلاً بماء المطر – بالإضافة إلى وجبات خفيفة كالشاي مع رغيف من الخبز. كان الناس يتعاونون. وقد أرسل والدي اثنين من رجاله إلى المعلّم ميك من أجل إنقاذ التبن وعندما وجدا المعلّم يمرح بصخب، رفعا قيمة الفاتورة، وكذا فعل اللحّامون وصاحب الحانة، واستسلما لقيلولة بعد الظهيرة في شاحنات التبن، بكسل واستمتاع إلى درجة أنَّ المعلّم ميك قال، مُشيراً نحو الاتّجاه التقريبي لفندق ليكسايد، «من الأرخص إرسالهما إلى هناك».

Twitter: @ketab_n

كان مُعلِّم الورشة. وعندما أغلقتْ الورشة أبوابها أُجِّرَتْ إلى نجّار وزجَّاج، لكنَّ المُعلِّم السابق مع كلبه الكبير الأشعث وعصا المشي خاصّته كان دائماً يُخاطَب بلقبه السابق.

إنّهم يتنقلون بحرية داخلين خارجين من وإلى وعي المرء كذباب الصيف. مربية الدواجن التي أمرتكَ مراراً وتكراراً ألا تلمس أسنانك بشوكتك، والمهندس الألماني الذي هبَّ إلى المساعدة في إيصال التيار الكهربائي، واختصر الطريق بركوب الحافلة، وظل يقول «ادفع- ادفع»، فظنَّ قاطع التذاكر أنه يعني أنه يُريد أنْ يدفع نقوداً مرة أخرى، في حين أنه أراد أنْ يترجّل ويختبئ خلف أقرب خندق. وفي النهاية توصل إلى الشرح بمُحاكاة العمل الذي رغب بيأس في القيام به بإلحاح.

كان هناك حدّاد يحملُ طبعاً وجهاً أسودَ ملوّثاً، يعزف على آلة الأكورديون وفي جعبته حشد من الحكايات. وعندما يُغني كان يغني من أنفه مُحاكياً أسلوب مغنٍ أميركي رقيق الأسلوب والأغنية التي كان يُفضّل أنْ يؤديها هي «باقة من زهر البنفسج»، وتحكي عن سيدة ثرية، لديها ابنة صغيرة مُدلّلة وعزيزة على قلبها توقفت في الطريق لكي تشتري باقة من زهر البنفسج الجميل من صبي صغير يتيم رأته. وتتطور الأمور ويُضطر الصبي الصغير إلى الاعتراف بأنَّ كل إنسان لديه مَنْ يُحبه، وكل إنسان له أب أو أم، وأخت أو أخ أيضاً، ولكن طوال الوقت، وحسب ما يتذكَّر، بما أنه مخلوق شديد الضآلة، بدا أنه الوحيد الذي لا يُحبه أحد. ويشاء القَدَر والعاطفة أنْ يكون هو ابن السيدة غير الشرعي، المنبوذ، الذي طال انتظارها له.

Twitter: @ketab_n

أثناء تصويره لفيلم «الرجل الهادئ» أوقفَ المخرج السينمائي (شون أليوسيوس) فورد الحدّادَ في أحد شوارع ليمريك. فقد ربَتَ جون فورد على كتفه ويُقال إنه قال له «أنتَ بالضبط هو الرجل الذي أبحث عنه». وطبعاً تردَّد الحدّاد، وقال إنه لا يتمتع بأي مقدرة على التمثيل، وإنه غبي في كل شيء ما عدا تركيب النِعال للأحصنة وإنه يُقيم مع أمه التي لن تُصدّق أنَّ مثل هذا الأمر يمكن أنْ يحدث، ومعروف عن جون فورد أنه قال «إنَّ المهمّ هو العينان». وادّعى الحدّاد أنه شاهد دوروثي باغت[46] في قاعة الطعام وأقسمَ على أنها أكلت دجاجة كاملة، بعِظامها وكل شيء.

كانت هناك امرأة عصبيّة المزاج رفع والدها راية الاتحاد البريطانية يوم توقيع المعاهدة الأنغلو- أيرلندية وكان أولاده يُصابون دورياً بالجنون. وكان هناك رجل مجنون يقطنُ في كوخ، ولم يكن يتحرك من دون موساه – لقطع الأعناق – وكان يشحذه على حجرٍ مُجاور أو دَرَجة سلَّم، قائلاً إنَّ كل ما يعرفه هو أنَّه يمكن أنْ يُقابل شيطاناً يُضطر إلى قطع عنقه على الفور. والشيطان دائماً يُرسَم في الخلفية بقرنَين وأسود البشرة، وغالباً يُرى في الليل، وغالباً أكثر عند الغسق، وسنوياً يظهر تشخيص ساحر له على خشبة المسرح، على هيئة الكونت دراكولا، كونت ترانسيلفانيا، الذي يمتص دم الفتيات. وتحلمين بمرافقته، وتتخيَّلين اللقاء في الكواليس حيث يعمد أولاً إلى صدّكِ ومن ثم يضعف أمام تبرُّعكِ بحزم أمتعته، وأمام وقوفكِ كبديل للفتاة لكي يتدرَّب على عملية امتصاص الدماء. نعم دراكولا

---

[46] دوروثي باغت (1905- 1960): سليلة عائلة طويلة من الأثرياء ورجال الأعمال ومُربّي الخيول. كانت صاحبة أعمال خيرية كثيرة. – المترجم

Twitter: @ketab_n

وأنت سوف ترحلان وسوف تُعيدين إحياء الجانب الورع منه.

إنَّ وجودك على جزيرة يجعلك تدرك أنه أصبح من الأصعب عليك أنْ تهرب وأنَّ الأمر يتطلَّب أنْ تولد من جديد، ومزيداً من القفز خارج المياه. ومع ذلك تشعر بإلحاح على الرحيل.

حتى الرحلات المحلية كانت صعبة، بما أنَّ الانتقال كان العائق الأكبر. كانت هناك دراجتان هوائيتان، واحدة «منهارة» أي أنه كان هناك دائماً عطل في الدولابين أو في أسلاك الأشمة أو في الدواستين أو في جهاز التوجيه أو أنَّ المقودَين نفسيهما يكونان مزاجيين ومتذبذبين.

في المعتاد كان المرء يُضطر إلى السير على قدميه. كان المسير إلى القرية يستغرق نصف ساعة وفي سبت الفصح تتصف الرحلة بالمسرّة التي يفتقر إليها الحج، فهناك الوليمة بعد انتهاء قسوة الصوم والتقشُّف. وفي الأيام الأخيرة من الصوم الكبير تصل المُعاناة المحليّة إلى ذروتها – كانت ساعات قُدسيّة، من تقبيل الصليب، والمزيد من الصوم، والصلوات المسائية في المُصلّى، حيث التماثيل وأوعية القربان مُتشحة باللون القرمزي، ويزول كل مظهر للبهجة، حتى الأزهار والمزهريات تُزال، ودورات متواصلة من التوقف حين تجذب الصور مُبهرجة الانتباه سقوطه، إلى جَلده، إلى الرقّة البسيطة التي تلقّاها من فيرونيكا التي قدّمت إليه منشفة يد[47]، وندب أمه وتثبيته بالمسامير على الصليب وموته على الأثر.

---

[47] في التراث المسيحي، تقول الحكاية أنَّ القديسة فيرونيكا قدَّمتْ للسيد المسيح وهو في طريقه إلى الصَلبْ منديلاً مطبوعاً عليه بصورة مُعجزة وجه السيد المسيح نفسه. - المترجم

Twitter: @ketab_n

ولكن في يوم ذلك السبت يسود شعور بالارتياح والحبور، لقد انتهى الألم والمذلّة كلها، على الأقلّ مؤقتاً، وواقع الأمر أنَّ هناك الحملان الصغيرة تمرح في الحقول، وكعك الفصح، واللوز المُثَلَّج، ومياه الفصح، والقصف بتناول الشوكولاة العادية والممزوجة بالحليب بعد سبعة أسابيع طويلة من الحرمان.

كنا نصلي قائلين «يا رب يا مَنْ جعل حمدكَ والبراءة الشهيدة هذا اليوم ممكناً، ليس بالكلام بل بالموت، اقتل فينا خبث الإثم كله لكي يظهر في حياتنا إيمانك الذي تُفصح عنه ألسنتنا».

في صباح يوم أحد الفصح نفسه، هناك المزيد من النشوة – الملابس البرّاقة، والطعام الفاخر، والتفاؤل نفسه، ويشعر المرء كأنَّ في استطاعته أنْ يعود إلى المنزل إلى قيامته الخاصة.

كانت هناك امرأة عانس تعاني من الروماتيزم تُعطي دروساً في العزف على البيانو ولديها عصا صدئة صغيرة لكي تضرب بها مفاصل الأصابع. كانت تُفضِّل البيضة البُنيّة على البيضة البيضاء، وفي كل مرة تشتري كليهما. كانت تقيمُ مع أختها، ولاحقاً بقيتْ وحدها. تُرى كيف استطاعتا تحمُّل تلك الحياة – تلك السنين الطويلة، من وجبة إلى أخرى، من يوم أحد إلى آخر، حياتهما الجامدة كنبات الأسبيدسترا[48] في نافذة وسطى عَرَضيّة في الطابق الأول.

كما تقع الممرضات في حب الأطباء، وقعتْ المُدرِّسة الجديدة في حب شاب عزب من الريف لم تزُر بيته أبداً. كان يُغازلها في مسكنها

[48] الأسبيدسترا: نبات من الفصيلة الزنبقية ذو أوراق كبيرة دائمة الخضرة.

Twitter: @ketab_n

المُستأجَر، بمعنى أنه كان يجلس على الكرسي القابل للطيّ (حصلت عليه من قسائم السجائر) قبالتها، ويُدخّن إلى أنْ يحين وقت تناول الشاي، ولعب الورق ثم العودة إلى المنزل. وكانت قد دفعت بصاحبة المسكن إلى أنْ تطرح الأسئلة الرئيسة:

صاحبة المسكن: «كم مدفأة توجد في منزلك الآن، شون؟»

شون: «لماذا تسألين؟»

صاحبة المسكن: «نحن في حاجة إلى أنْ نعرف عدد حواجب النار[49] لكي نقبلها كهدايا عرس»

شون: «آه في الواقع تكفي شجيرة جولق»

المُدرّسة ماتت شابة، في مستشفى سُمّيتْ باسم القديس جود شفيع الحالات الميؤوس منها، وقبل أنْ تموت بساعة، رفعت يديها، كاشفة عن رسغيها النحيلَين وقالت «بعد أنْ أخرج من هنا سأشتري شتى أنواع الملابس الجديدة»، وكانت معروفة بأنها أدخلت أنواعاً من الحلوى والورود الأسقلوبية[50] والنفيخة[51] و سوفليه الطحالب البحرية، إلى مكانٍ مُحصَّن مُكرّس بعناد لتناول البطاطا ولحم الخنزير والملفوف.

الرجال الذين يُغازلون كانوا ينتظرون على جانب الطريق

---

[49] حاجب النار: هو سياج صغير موجود عند فوهة مدفأة الحطب الجدارية يوضع من أجل درء الرماد الحار أو الجمر من الخروج.

[50] الأسقلوبية: أي على شكل المحار المروحي.

[51] النفيخة والسوفليه: أنواع من الكعك ينتفخ عند خبزه.

Twitter: @ketab_n

ويُطلقون إشاراتهم بالصفير الخافت. وكان التودُّد عمل يائس يُمارَس في المستنقعات والأماكن القذرة، وفي سريّة الشجيرات الرطبة. فهل كانت علاقات خرساء بعيداً عن ضجيج الجسد، والنخير؟

المتع البعيدة عن الإثم كانت الأكل، والشراب، والاحتفالات العامة، والنشاط التبشيري، والسباقات. وفي السباقات هناك المتأنقون يحملون البطاقات والمناظير، ووكلاء المراهنات مع حوامل الإعلانات وألواح الكتابة، ورجال لغة الإشارات، وحشود الناس التي تتجمّع ويسأل أحدهم الآخر إذا كان منهم رابح. وغالباً كان الرجال هم الذين يُراهنون والنساء والأطفال يتجمعون في الأكشاك والسقائف حيث يبيع البائعون مسحوق الليموناده، والبرتقال، وأساور العِظام، وحيث وُضِعت كلاب من الخزف الصيني لتُربح بالقرعة.

ليلاً تبدأ التسالي ويتحول المكان إلى قِبلة تضم أشياء شتى متعددة الألوان، من ضوء، ومصابيح جميلة تومض وكافة أنواع التسالي التي تخطر على البال كالسيارات المتصادمة التي يركبها الناس وتصطدم وتُطلق شرراً من زميلاتها وأعدائها. وكانت هناك أيضاً قوارب مترنحة، وقطار صغير مملوء بالصارخين يقومون بجولة دورانية لكي يحصلوا على الإثارة. تسمعها ولا تراها. الفرصة لا تسنح أبداً. دائماً ستأتي في العام المُقبل ولكن مع حلول العام التالي لا يتوفّر أي مقعد في السيارة المُستأجَرة. وتتعجّب عندما تسمع عن رجل يأكل شفرات حلاقة دون أنْ يتأذّى لسانه أو حنجرته. وتخلص في دخيلتك إلى أنه مخلوق عجيب وليس مُركّباً مثل ميري التي ابتلعت ساعة يدها الصغيرة واضطرت إلى شرب زيت سيارات «لكي تدع الوقت يمرّ».

Twitter: @ketab_n

إنَّ الذين كانوا يُتاجرون بالأساور، ومناديل المائدة وأواني المهرجان الزجاجية كانوا باعة جوّالين، وغجراً مزيَّفين يتنقّلون بسرعة في عرباتهم الصغيرة من بلدة إلى أخرى يسوطون الأحصنة إذا ما تباطأتْ. أمك لم تكن تثق فيهم، قالت إنهم قادرون على ارتكاب أي عمل شرير، أي عملية سرقة، وقالت يعلم الله مَنْ صاحب حاجز الاصطدام أو دلو الفحم الكامن تحت أبسطة الطرطان[52] باهتة الألوان عندهم. وقد وصف والدك كيف نزلت إحدى تلك السيدات السمراوات ذات خريف إلى البستان، واشترت التفاح من الشجر، والتقطته بيديها، وغلّفته بورقٍ ملتوٍ وحفظته في حالة جيدة من أجل يوم السباق في الربيع التالي. وادّعى أنَّ ذلك التفاح كان الأفضل في العالم، قشرته حمراء لامعة وحتى الثمرة كان يتخللها تغضُّن من اللون الأحمر كالصِباغ. كان البستان في حالة مزرية، الأشجار مُصابة بالمرض ومنحنية، والقرّاص يتكتَّل بين أكوام النفاية المُكدّسة عبر السنين. وآخر عزب عجوز لم يكن مؤهّلاً للحِفاظ عليه.

وسرعان ما مات.

كان الاحتضار غالباً ما تسبقه ضربة الموت أو شيء أكثر تجريماً. ففي الليلة السابقة لموت حارس بوابة المسكن، قفز ضفدع خارجاً من الرماد وكذلك حدث عندما ماتت زوجته، وابنتهما قبل ذلك بوقت طويل. كانا مُخلصين للشاي الكندي، ولزيت الأوكاليبتوس[53]، ولخبز الصاج. كانت علامات حديد الصاج تطبع السطح الباهت

---

52 الطرطان: قماش صوفي مُقلَّم بخطوط متنوعة الألوان ومتقاطعة على زوايا قائمة. - المترجم

53 الأوكاليبتوس: شجر يُستعمَل ورقه وزَهره طبيّاً.

Twitter: @ketab_n

للخبز الدافئ. وترافق أمك وكأنكَ ذاهب إلى أرضٍ نائية، على الرغم من أنَّ المسافة لا تزيد عن مائة ياردة على المرج ثم خلال بوابة الخروج، ومنها إلى الكوخ الخرافي الصغير، بوروده المتمايلة ورائحة الطمي المنبعثة من مساكب الأزهار لأنها على مستوى واحد مع الجدار المُبيَّض بماء الكلس. وتُعطى الخبز المُحمَّص والبسكويت الذي تتخلّله ثقوب صغيرة تتسرب منها المربّى، المربّى وأفضل منه الهلام.

كان حارس البوابة وزوجته يتشاركان في النظارة الخالية من الإطار نفسها التي حصلا عليها من رحّالة، «اليهودي» الذي كان يأتي مرتين في العام مع حمولته من النظارات مع قطعة القماش الصغيرة المُشرشرة برتقالية اللون لتلميعها. كانت المسافة بين مدينة ليمريك واختصاصي العيون عشرين ميلاً أيرلندياً، وإذا ما حدث طارئ واستلزم الأمر تغيير نظارات أو تبديل بطارية رطبة أو إعادة شحنها كان ينبغي إرسالها إليه بالحافلة. وكان قاطع التذاكر يُضطر إلى قضاء يومه كله في المدينة يؤدي المهام كلها. وكان والدي ينتظر في كوخ البوّاب لكي يُرسِل نظارته الخاصة ذات الإطار المصنوع من العظم إلى ليمريك لكي تُصلَّح – كان قد جلس عليها – وعندما سمع الحافلة قادمة، هرع إلى الخارج، لكنه التقط نظارة واتل[54] خطأً والنتيجة أنهما معاً لم يتمكّنا من قراءة الصحيفة على مدى أسبوع. وعندما استعادها وجد أنَّ العدستين سميكتين ومُبقّعتين، وسبَّبت لكليهما صداعاً شديداً. وتبع ذلك برود بين العائلتين.

كان الموتى يبدون مختلفين، يبدون أشدّ شحوباً، ولا مبالاةً،

---

[54] واتل إحدى ماركات الساعات.

Twitter: @ketab_n

ومُجرّدين من قلقهم وهياجهم. وسواء أكان الموتى شباناً أم عجائز، كانت وجوههم تحمل قدْراً من الجمال النرجسي المعتدل، لكنهم يفوحون برائحة الموتى والدموع التي ذُرِفَتْ عليهم ذُرِفَتْ لأنهم ماتوا، وغلايين الطين والمسابح وبراميل شراب البورتر المُستهلَك، والنعش الزجاجي الكبير، والشموع، وملابس الكتّان، كلها كانت ترمز إلى الحدث الحزين، الذي يدوم إلى الأبد.

كان هناك شخص واحد لم يكن أبيض على الإطلاق بل أحمر وتعرَّض للتمزُّق، ونُثِرَت قِطع من لحمه، وعُجِنَ جسده المسكين مع سيارته لأنه اصطدم بها بعمود التلغراف. صوت الاصطدام أخرجَ الناس من منازلهم، وراح كلٌ منهم يسأل «ماذا حدث، ماذا حدث؟»، إلى أنْ جلبَ أحدهم مصباحاً، ولم يعلم الناس ما الذي يواجهونه، وقال والدي إنه يعتقد أنَّ المخلوق المُحتضِر حاولَ أنْ يقوم بعمل ندم مثالي، على الرغم من أنَّ رأسه قد قُطِع. وجُمِعتْ أشلاءه كيفما اتّفق، ودُفِنَ، وأُعطيَ اسمه للعب للهرلي[55] وفي وطنه كانت هناك، بالإضافة إلى تذكار عنه – عبارة عن مقبض باب من الكروم – رسالةٌ مؤطَّرة ومعروضة موجَّهة إلى أم تصفُ موت ابنها، لا تقلّ تأثيراً، ولكن افتُرِضَ أنها تمثّل إرادة اللّه. كانت تُبكيني، وتُخيفني، وفي النهاية حاولتُ أنْ أتعمَّق فيها:

«على الرغم من ثِقَل عبء حزنك أشعر أنه سيخفّ قليلاً بالتفكير في أنَّ ابنك العزيز تلقّى كل عون من الدين المقدَّس ونتيجة لذلك مات ميتةً شديدة القُدسيّة والسعادة. وتلبية لاتصالٍ مُلِحّ جلستُ إلى جواره على ضفة النهر بعد

---

55 الهرلي: لعبة تُشبه لعبة الهوكي. – المترجم

Twitter: @ketab_n

وقوع الحادث المميت بعشرين دقيقة. كان لا يزال واعياً تماماً وعلى الرغم من إصاباته الصاعقة إلا أنه كان في حالة من الهدوء الظاهري التام والتماسك. وأدلى باعترافه بأسلوب ناضج (وفي الوقت نفسه قام بمراجعة قصيرة لحياته برمّتها) وكرّر توبته وردّدَ الصلوات الأخرى كلها برصانة وثبات جعلته يبدو كأنه نسي أمر ألمه كله. وفي الوقت نفسه تلقّى المسح بالزيت المقدّس والمباركة الختامية لكنه لم يقبل لسبب معيَّن قربان الموت المقدّس. وانتابني القلق الشديد خشية أن يُحرَم من هذه الميزة، وهكذا عندما نُقِلَ إلى المُستشفى، رأيته من جديد بعد ذلك ببضع ساعات. وأجريتُ معه حديثاً طويلاً آخر حول الأمور الروحية، فوجدته لا زال متماسكاً تماماً وكم فرحتُ عندما وجدتُ أن في استطاعتي أن أمنحه قربان الموت المقدّس. وقد استمدَّ هو أيضاً متعة قصوى من عِلمه أنَّ في استطاعته أن يلقى في النهاية ربّه. وساعدته على تقديم شكره ولما كنتُ أعلم أنه لم يبقَ أمامه أكثر من بضع ساعات من الحياة حتَّمَ عليّ واجبي الحزين أن أُبلغه ذلك عملياً. ثم سألته إنْ كانت لديه أية رسائل أخيرة يوصلها إلى أصدقائه. فاكتفى بالقول «أخبر أمي أني كنتُ أحتضر وأنا سعيد. قُلْ لها ألا تقلق بل أن تُصلّي من أجلي، انقلْ لها ولأبي وداعي، وقُلْ لهما إننا سنجتمع معاً قريباً». ثم استأذنت من الرجل المسكين وأنا أقول له إني سأجتمع به من جديد في وقت لاحق مساء. وعندما عرّجتُ مرة أخرى كان خاضعاً لتأثير المُخدِّر لذا منحته البركة الختامية وغادرت، ويجب أن اعترف بأني كنتُ مُثقل القلب جداً، وأضمرُ مقتاً شديداً في قلبي نحو العقول البشرية المنحرفة كلها التي تخترع أفخاخ الموت على هيئة قنابل لتشويه جمال تُحف الله وبتره؛ الرجال الشجعان. ويمكنني أن أقول لك في الختام إنَّ الأطباء، والممرضات والجيش الوطني، قدّموا كل ما هو ممكن إنسانياً، وإنَّ موته قد تمَّ بأكبر قدرٍ من السهولة والسكينة في ظل الظروف الحزينة – وقد أبدى رجال الدين وسكان البلدة جميعاً تعاطفهم معه ومع رفيقه العزيز بطريقة مثالية. ومع ذلك لا

Twitter: @ketab_n

أعلم إنْ كانت هذه الأشياء كلها تستطيع أن تمحو حزن قلب الأم الكسير. ينبغي ألا تفكّري إلا في الأم الثانية التي حدّقتْ بدورها إلى جسد ابنها العزيز المسحوق. فلتخفّف عنكِ أم الأحزان وصلاتي الرصينة وأنتِ وسط حزنكِ العظيم».

المُخلِص،

ملاحظة: «لقد أغفلت وسط كلمتي المستعجلة أن أنقل إليك ما قاله ابنك العزيز في لحظاته الأخيرة، أيضاً عند نزع بذلته الرسمية عثرت الممرضة الليلية على بعض الملاحظات ولم تعلم ماذا تفعل بها. لقد اكتفى بالقول» أقيمي القداديس لكلينا «- في إشارة إلى رفيقه في السلاح الملازم فلين. وعلى الرغم من أنه كان تحت تأثير المُخدّر بقي - المسكين - واعياً حتى النهاية وكرّر توبته ونطق بالاسم المقدّس لبضع لحظات قبل أن يلفظ أنفاسه. ولذلك، إذا أخذنا في الاعتبار الأشياء كلها، يمكنكِ أن تحمدي ربك على الموت الجميل الذي حظيَ به ابنك. لا شك في أنه في حضرة الله. وعلى الرغم من طيبته وكونه أثير قلبكِ فإنه ليس بعيداً كثيراً عن الله».

جيراننا الثمانية البروتستانت لم يكن مُقدَّراً لهم أنْ يصلوا إلى ذلك الهدف المُبارك ولا الطبيب الأسود أو اليهودي الجوّال. في الحقيقة إنَّ الطبيب الأسود وصل إلى سجن المقاطعة إبّان موت أحد المزارعين بعد خلع أحد أضراسه بالكمّاشة وقالت الصحف «طبيب يُحكم عليه بالسجن بعد خلع الأضراس من فم مليفان». واليهودي ذهب إلى المستوصف وطُلِبَت منه عيّنة من البول فرفض إعطاءها قائلاً إنه سيُحضرها في الأسبوع التالي. وعندما نفّذ هذا الطلب، اضطرّ إلى الانتظار أسبوعاً آخر للحصول على النتائج وعندما سمع النبأ السعيد اتّصل بزوجته التي كانت غريبة تعيش

Twitter: @ketab_n

في بلفاست وقال لها «أنتِ سليمة، وأنا سليم والصغير نوح سليم». ولكي يحصل على قيمة ما دفع من نقود كان قد مزج نماذج البول الثلاثة، خلطها. كانت حكايات البول هي الأشدّ وقاحة، خاصةً تلك التي دارت حول قسيس الأبرشية الذي عندما شكَّ في أنَّ مُدبّرة المنزل كانت تشرب من الشيري الخاص به، قرّر أنْ يُضيف إليه البول، وبعد مرور أسابيع على ذلك كان أثناءها مستوى الإناء ينخفض بطّراد بشكلٍ فاضح، فاتحها في الموضوع فقالت «أوه، يا أبتِ، إنني أضع قليلاً منه في حِسائك كل يوم».

لا شيء يبقى مجهولاً أو دون محاكمة. كانت مُدبّرة منزل ميك المعلّم قد أُمِرَت بألا تُقدّم أي شيء، ولا حتى كوباً من الشاي، دون أنْ تضعه على صينية. وذات يوم، عندما طُلِبَ منها أنْ تعرض القُطيطات على الضيوف، أحضرت ستاً منها على صينية العرض الفضيّة. لقد ظنَّت الفتاة القروية التي كانت تستعمل الهاتف للمرة الأولى، كما في نظام البرقيات، أنَّ الاقتصاد في الكلام شيء حيويّ وأمسكت السماعة المُخيفة وتحدثت مع أخيها في لندن قائلة «تعال بسرعة، جيم مريض، بابي». ومنذ ذلك الحين لم تعُد تُعرَف باسمها الحقيقي، بل بـ «جيم مريض بابي».

اليهودي نُبِذَ كما كان يحدث مع الفجر والباعة المتجولين، كلهم يجلبون على أنفسهم العار الأخرس، المُرتبط بغموض بالجنس وبأنَّ لهم بشرةً شاحبة وفتحتي أنف مرتعشتين. تجار الفرو كانوا من اليهود، وتجار الجواهر كانوا من اليهود، ولا يترددون في نزع مجوهراتك النفيسة من ساعة يدك أو أفضل قطع الفرو واستبدالها بأخرى زائفة. وقبل نصف قرن من الآن وقعت في ليمريك مذبحة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

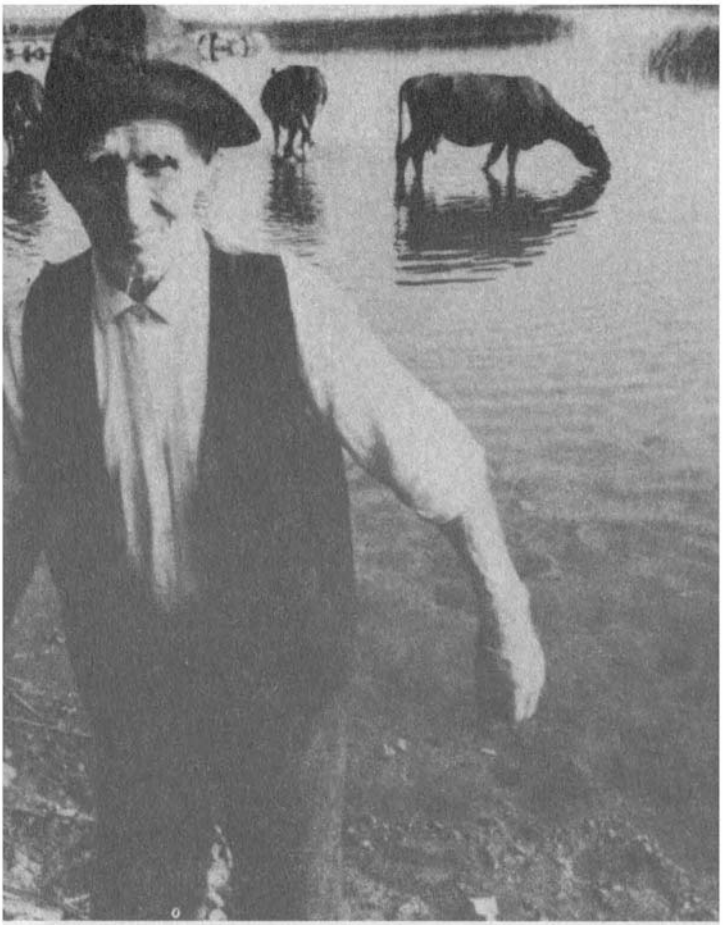

(الصفحة السابقة)

والدي، مايكل أوبراين:

مُقامر. والدك قال إنّ الفئران يمكن اعتراض طريقها، وإرباكها، بوضع ملح على أذيالها، وجرّب هذا وعندما لم تنفع الطريقة في شلّ حركتها لجأ إلى رميها بالحذاء، وهو آخر غرض ممكن تصوّره. وتراهن هو والطبيب على مَنْ سيقوم بالمذبحة الأولى. وكانا متحمّسين للأمر. وراحت الفئران تتسلق الجدران في محاولات يائسة للهرب من سيل الرجم. وأفرغ قبو الملح من محتواه. أصدر فأر يحتضر آخر صرير شنيع له وطلبَ من أمكِ أنْ تُقرضه ستة بنسات لكي يُشرِّف دَينه. وأصيبَ بصدمة لأنه خسر.

Twitter: @ketab_n

الأولاد لا يتركون الفتيات وشأنهنّ

لقد بعثروا شعري وكسروا مشطي....

مزارع من مقاطعة كلير:

«شاهدتُ هيكي قادماً عبر الحقل ولوّحت له بيدي. كان يسوق الأبقار. كانت تنتشر في أرجاء الحقل، تتوقف برهة، كعادة الأبقار، لكي تُحدّق بتكاسُل إلى الفراغ. كان هيكي يُصفّر وكان المساء هادئاً ورقيقاً بحيث أنّ أغنيته امتدّتْ عبر الحقل. إنّ شخصاً غريباً يسير في الطريق ربما اعتقد أنه مكان ترفرفُ عليه السعادة.»

Twitter: @ketab_n

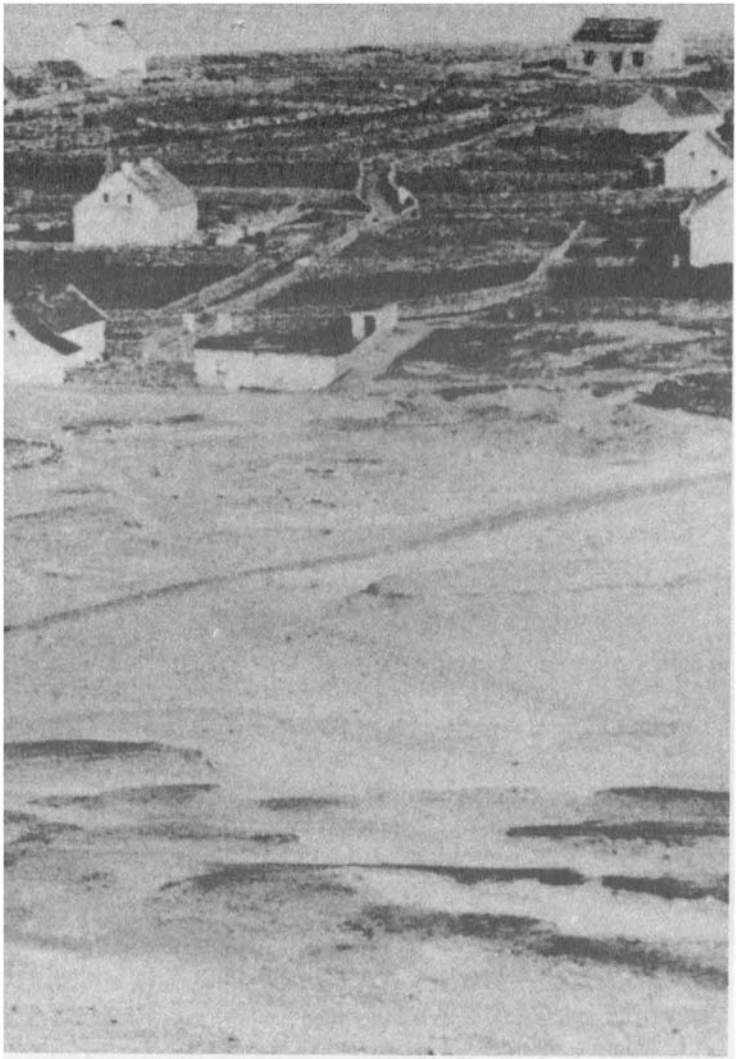

أكواخ على جُزُر آران:

اعتبَرَ ج. م سينغ جُزُر آران أشد الأجزاء المتبقّية في أوروبا بِدائية. أخذ معه آلة تصوير فوتوغرافية، وإلى جانب تأليف كتابه «دفاتر آران»، قام بأخذ صورٍ فوتوغرافية لفتيات تُعير رموشهن الطويلة ظلاً لعيونهن الحزينة. ورأى أن التنانير الحمراء التي يرتدين ويعلوها أوشحة زرقاء قاتمة ذات جمال أشدّ هدوءاً من أي زي

Twitter: @ketab_n

لفلاحة شاهده في أوروبا. لكنه رأى أيضًا أنه من دون ذلك الشكل الأحمر المُريح لأضحت الجزيرة كابوسًا جديرة بدفع المرء إلى ارتكاب القتل لكي يتأمل قليلًا لون الدم المتوهج الحديث. قال عنه بيتس إنه يتّصف بنزاهة حانقة وبحزن مُضطرب لا مبال.

Twitter: @ketab_n

إعداد القوارب للانطلاق بها إلى السفينة البخارية. الأطلسي:

تأتي القوارب إلى جُزُر آران مُحمّلة بالتُرف من كونيمارا والمؤن من غالاواي. السكّان يجلسون على طول جدار البحري ويراقبون بصبرٍ مُدهش كل ما يجري، وما جرى، وما سيجري، ربما حتى آخر الزمان.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

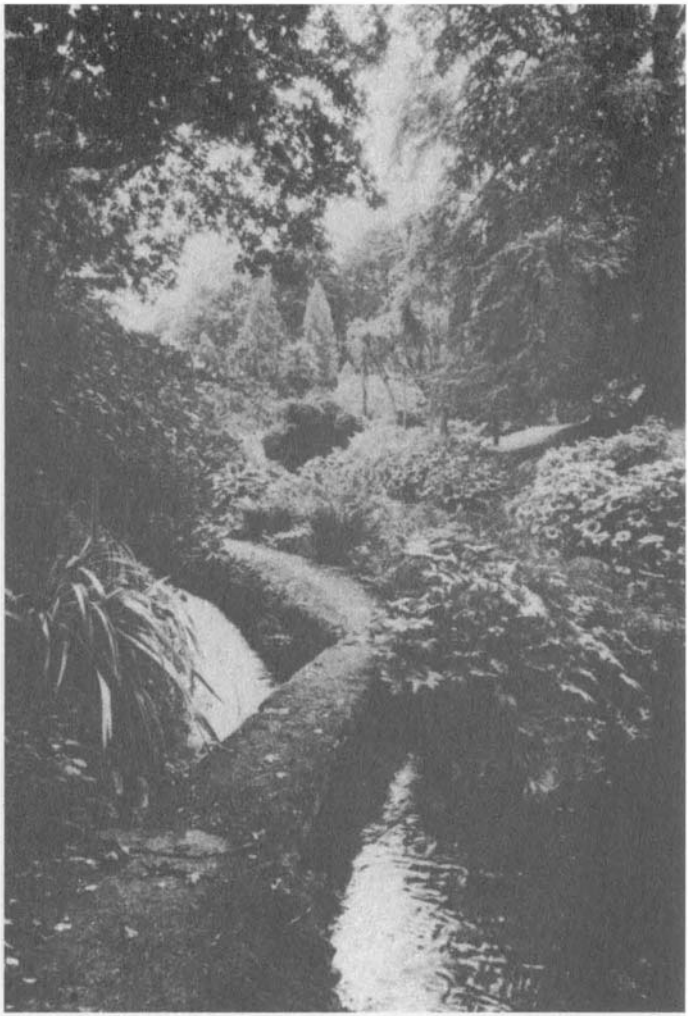

حديقة المطبخ:

حدائق العزب الكبيرة مزدحمة بالمزروعات وجميلة. هنا، تتصارع الشجيرات الصغيرة، والأزهار والأشجار التي تنمو عليها الطحالب، من أجل الضوء والبقاء. في حين تباشر طيور الغداف عند الفجر ومن جديد عند الغسق بإطلاق صراخها الذي لا ينتهي. وعلى الرغم من أن الحدائق غير مُنسّقة، تبقى كرفات منزل مُهدَّم أو مُحترق.

Twitter: @ketab_n

مُنظّمة فطلب قس تخليصيّ من المؤمنين أنْ يرجموا المُرابين ففعلوا.

كانت ليمريك مدينة نموذجية. كان الجميع يتوافدون فيها إلى الجمعيات الخيرية. وترى الرهبان بأروابهم البنيّة وصنادلهم يتنقّلون في المدينة ويقومون بأعمال الرحمة الشخصية. وعند الباب الجانبي للرهبنة كان يتجمّع رهطٌ من الناس، بعضهم جاء ليستجدي الخبز والحساء، وآخرون ينتظرون ليُقدّموا عطاياهم لكي تُقام على أرواحهم القداديس بعد رحيلهم. وعندما تبلغين العاشرة أو الحادية عشرة من العمر، وتقومين بزيارة، تجلسين في المُصلّى واضعة ساقاً فوق أخرى وترجو منكِ سيدةٌ ساخطة أنْ تُنزلي واحدة عن الأخرى فوراً. وتقول «هل تعلمين أنَّ سيدتنا تحمرُ خجلاً كلما قامت امرأةٌ بمثل هذا التصرُّف المُشين».

ليمريك: يا مدينة الكنائس والأبراج الجميلة.

يا مدينة الحانات والرغبات الدنيئة.

يا مدينة الشائعات التي تُردّد ما يُقال.

يا مدينة الشبان الذين يرغبون في التقدُّم في العمر.

يا مدينة المجتمع موطن المتكبرين.

أريني نقودك قبل أن تباشري المعاشَرة.

اشربي قهوةً تناولي كعكةً.

افعلي ما يفعله الآخرون لأنّ هذه هي الأصول.

في المدرسة كان يُقال لنا إنه في عام 1690 خلال حصار ليمريك أُغلقت بواباتها السبع عشرة، ودافع السكان عن أنفسهم

Twitter: @ketab_n

بالعصي والحِجارة، وحتى النساء صبّت العصيدة وهي تغلي على رؤوس الجنود الإنكليز. ثم ذكروا كيف كان رماة القنابل اليدوية يقفزون نحو الأمام ويرمون قنابلهم، وكيف ردَّ الأيرلنديون بسيلٍ من الطلقات «بأسرع ما يمكن». ومع إغلاق البوابات ليلاً كان قد مات خمسمائة إنكليزي في أماكنهم وألف آخرون جُرِحوا وفي اليوم التالي سدَّد الملك وليم مدافعه الأربعين باتّجاه الاستحكامات الضعيفة. وأُطلِقت قذائف حارّة إلى الشوارع المُلطّخة بالدماء، وانهار الناس، والأحصنة، بينما استمرَّ المدنيون في العمل بجدّ لإخماد النيران. وبعد مرور سبعة عشر يوماً من مثل هذا النوع من المعارك تمَّ اجتياز سور ودخل رُماة القنابل حاملين قنابلهم بلباسهم الأرقط ذي اللونين الأصفر والأحمر، وغطاء الرأس الفرو، والأجراس ترن حول أحزمتهم. ولكنهم سرعان ما توقفوا وضجّتْ الأرض الرخوة والكسول التي تسقيها مياه نهر شانون بإطلاق رصاص المسدسات، والتفجيرات وتصاعدت أعمدة الدخان.

تعاظمَتْ الشجاعة. والذين اكتفوا بالفرجة في أول الأمر، المدنيون الذين يعيشون على أكل البقول النيئة والشوفان الصِرف، انخرطوا في القتال ليبثّوا روحاً جديدة إلى الأيرلنديين المُرهقين. وتراجع الإنكليز، شيئاً فشيئاً، إلى أنْ عادوا إلى مُخيّمهم يُسربلهم الخزي والعار.

وبدأ هطلُ المطر – مطر أيرلندا الناعم المُخلص، ليغسل الشوارع المُلطّخة بالدماء ويُعيق أتباع وليم بتحويل موقع مُخيمهم إلى مستنقع. كان مستوى نهر شانون يرتفع، والجنود الإنكليز يخوضون في الوحل حتى رُكبهم، ومرض الزحار يتفشّى بينهم.

Twitter: @ketab_n

فرّ الملك وليم وتنبّأ الجميع بالنصر للأيرلنديين لكنَّ هذا لم يتحقق لأنَّ باتريك سارسفيلد، القائد، تعرَّضَ للخيانة بسبب غيرة زميله تيركونيل، الذي كان قد أبحر إلى فرنسا، وأخذ معه القوات الفرنسية وأفضل عتاد المدفعية. وتفشّى الخلاف، وتخاصم العسكريين مع المدنيين ومع حلول العام التالي وبعد دوام الحصار ستة أشهر، واستمرار حالة الحرمان والقصف الرهيبة، استسلم سارسفيلد نفسه وناشد عقد معاهدة سلام.

كان الأيرلنديون دائماً يصلون إلى شفا الانتصار، وإذا بالقَدَر، العدو النشط، والتحرُّك الاعتباطي، والإرهاق، أو الخيانة الداخلية تُغيِّر مجرى الأحداث. هذا ما قيل لنا في غرفة الدرس يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، وهكذا أخذنا نطوِّر أفكارنا في اللا وعي حول القَدَر وتقلّباته كلها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

3. غرفة الدرس.

كانت نوافذ غرفة الدرس عالية، بألواح زجاج صغيرة نادراً ما تُنظَّف. وكان المقبض الذي يتعذَّر الوصول إليه مكسوراً بحيث كان لابد من فتح النافذة بالقوة بوساطة خطّاف وإبقائها مواربة بعلبة من القصدير أو بفرشاة قاسية أو بأي شيء في المتناول. أحياناً يستحيل فعل ذلك ويُصبح جو الغرفة فاسداً. كانت غرفة طويلة. في الصباح الباكر يُرشّ الماء من كوب، على طول الأرضيّة، قبل أنْ تُكنَّس. ثم يبدأ سيل المعلومات بالانقضاض. هناك كان المرء يلتهم التاريخ، وهناك كان يتشكَّل كيانُ باقي البلد كلّه بمجرّد النظر إلى خريطة القماش رمادية اللون والممزقة، بما عليها من بقع حمراء تدل على مواقع المدن الرئيسة وخطوطٍ متكسّرة تتبع مسار الأنهار. هناك كان المرء يسمع عن الطريق العملاقة ومن كتابٍ بُنيّ صغير يسمع بالأيرلندية وبالإنكليزية عن أسماء بلدات محلية، أسماء صُمّمت بسبب مميّزاتها:

سفح التل زراعة اللفت — تل المشورة

تل اللبلاب — تل المنحر الصغير

Twitter: @ketab_n

الحدبة	راعي القنّاصة
مرج الفأر	راعي أوبراين
الجزيرة البيضاء	المعقل القديم
الجزيرة الجميلة	أرض الرهبان
جزيرة الحمّيض	المنطقة الخالية من الطيور
التل المكسو بأيك الشوك الأبيض	حلمتا دانان

المسحوق اللازم لصنع الحبر كان يأتي من المدينة، والوعاء الكبير لحمله كان يحتوي داخل زجاجه فقاعات هواء صغيرة. كانت عملية مزج الحبر تنطوي على خطورة، وكانت الأرضية تُكسى ببقع عجيبة الشكل من المادة المُراقة، بقع تظهر في مناسبات مختلفة أما هناك فكانت دائمة. وكانت هناك ثقوب في الأرضية حيث تعدو الفئران، وبعض الفتيات قلن إنهنّ شاهدن جرذان. والقاموس الهام الكبير كان يتطلّب قوة فتاتَين لإخراجه من الخزانة. كل حرف فيه كان مُفهرساً باللون الأسود، على شكل إبهام، على الهامش بحيث يمكن استخراج الكلمة على الفور. وتعلّمنا أنَّ كلمة «intenerate» تعني يُطرّي أو يُرقّق وأنَّ «الخوفَ يُطرّي القلب ويجعله مؤهّلاً لكل تعبير مهذَّب». أيضاً أنَّ كلمة «empidae» لا تعني بعوضاً بل أنه يطير جماعات فوق المياه في أمسيات الصيف ويتغذّى جزئياً على الحشرات الأخرى وعلى عصارة الأزهار. والجميع بدؤوا يهرشون أنفسهم لدى سماع ذلك. وتُسأل إحدانا فجأةً عن معنى كلمة، كلمة صعبة وأيضاً، كما كانت المُعلّمة تقول، لن تتوصل إحدانا إلى مستوى التوقعات، وسوف تفشل، وتُخطئ، وتُخفِق، وتُحبَط. ثم

Twitter: @ketab_n

تُشير إلى القاموس المُلبَّس بالجلد وتقول «ابحثنَ، ابحثنَ»، ثم تتلو بإخلاص وبلا أي سبب:

في مُعجم الشباب الذي يحفظه الإيمان

بالنسبة إلى الرجولة الحقّ، لا وجود لكلمة فشل.

ثم جاءت سيدة لتعلّمنا الرقص الإيقاعي في أيام الخميس، حاولتْ أنْ تُعرّفنا على لغز الإيقاعات الراقصة. ولما لم تكن هناك موسيقى مُرافقة طلبتْ منا أنْ ندندن اللحن. كانت ربلتا ساقاها متينَتين وجميلتَين، وترتدي جوارب قاتمة اللون وتنتعلُ حذاءً بشريط جميل يصل حتى مشط القَدَم. ثم تتغيَّر الدندنة. بعض الفتيات يقلنَ «واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة، الأطفال الطيبون كلهم يذهبون إلى الجنة، وعندما يموتون تُغتَفَر ذنوبهم، واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة». وكلفة الدرس بنس واحد. عدد قليل من الفتيات قبلن التعلُّم بينما جلستْ الأخريات على مقاعدهن متظاهرات بالدرس، يُعدن قراءة كل شيء عن معركة كينسيل أو وصفاً لصباح يوم منعش في نيو إنغلند كما وصفه ثورو[56]. كان ذلك يفوق إمكاناتنا لذا سُررتُ، وإنْ كنتُ شعرت بالحرج لجلوسي جانباً وعجزي عن المشاركة، وفي أعماق قلبي كنتُ ممتنّة إلى أقصى مدى، مُعتقدة في الوقت نفسه أنَّ الرقص يُزعج الجسد ويمكن عند وصوله إلى مرحلة متطرّفة أنْ يدفع بالسوائل كلها والدماء والأحشاء نحو الخارج. كانت معلمة الرقص عاشقة وكان ذلك حال عدد كبير مثلها. كان الحب هو علاج كل شيء، كان يصنع المعجزات.

---

[56] ديفيد هنري ثورو (1817-1862): كاتب أميركي. أهم كتبه «والدن»، ويضم تجربة الكاتب في العيش في عزلة

Twitter: @ketab_n

المعلّمة عصبية المزاج كانت بين حين وآخر تقذف الأدوات – أقلام حبر، أقلام رصاص، علب أقلام رصاص، مثلثات زوايا، قلنسوات، كتباً ومزيجاً من اللغات كانت خليطاً من الأيرلندية، والإنكليزية واللاتينية والمزاح. وفي اليوم التالي، أو اليوم الذي يليه، كانت تُكفِّر عن ذلك بتركنا نقوم بالقراءة، أو بترك الصغيرات يمزجن ألوان اللدائن الجديدة كلها بحيث تُشكّلُ خطوطاً متعددة الألوان وتُحضِر حلوى أو بقايا كعكة مُثلّجة وتقطّعها على طبق الكعكة لكي نتقاسمها. وهذا طبعاً كان يخلقُ قلقاً لأنه لا أحد كان يعلم إنْ كان سينال حصّة، والأسوأ من ذلك إذا انتهت الحصص عند الفتاة التي قبلك مباشرةً، وتكاد الواحدة منا تشعر بمذاق الحلوى وترى الفُتات على شفتيها. وذات مرة صنعت المعلّمة قليلاً من عجّة المربّى لنفسها، على نار في الهواء الطلق وأعطت نصفها للفتاة التي كانت في طريقها إلى المراحيض. كانت هناك مراحيض للأولاد وأخرى للفتيات. خشب خشن. دلاء. وسائل صحية سيئة. هذا ما قاله طبيب التطعيم يوم جاء وممرضته إلى جانبه. كانت مهمتها وضع كمادات اليود على البقعة المُحدَّدة والإمساك بالذراع المرتعشة حتى ينخسها، ثم يحقنها، ثم يهتف «التالي». ذهبت الممرضة إلى المراحيض ومكثتْ هناك مدة طويلة ومن ثم انتقلتْ إلى الطوابق – الطوابق الآجرية الثلاث كلها – وكانت الدماء تسيل على الممر الرئيس المُظلم، نهر حقيقي منها. ما سببه؟ ماذا حدث؟

في المساء غادر الطبيب ومُرافقته – وقد أضحت أشدّ شحوباً عندئذ، عائدَين إلى العاصمة حيث الشوارع شديدة الضيق حتى قيل إنَّ الناس يمكن أنْ يتصافحوا عبر نوافذ طوابق منازلهم العليا، العاصمة المشهورة بأنها شهدتْ حضور دانييل أوكونر المرتعش

Twitter: @ketab_n

بالإضافة إلى سماع خطبته[57] و دو فاليرا[58] المتزمّت.

عندما كانت تُمطِر ويُصبح الفناء من فرط البلل بحيث لا يصلح لممارسة الألعاب عليه، كنا نتجمهر في الشرفة – أربعون أو خمسون فتاة – نشبه الدجاج لكننا كنا نثرثر، متجمّعات بجوار رائحة الخث[59] الكريهة. كان يمكن لرائحة الخث الكريهة أنْ تنفذ إلى داخل الرأس، وتجعل الأفكار بُنيّة ومخضّلة وهشّة كالمادة نفسها. كنا نتناول وجبة الغداء هناك. وكانت وجبات غداءنا متشابهة – شرائح سميكة من الخبز والزبد، سطح بعضها مرشوش بالسُكّر، مع زجاجة صغيرة من الماء أو الحليب. كنا نُعلّق معاطفنا على خطّافات، معاطف متراكمة واحداً فوق الآخر وكلها مُهدَّد بالسقوط، ثم قلنسوات خفيفة من أنواع متعددة، وأوشحة وقفازات صوفيّة مُضِفَتْ مراراً وأضحت أبعد ما تكون عن شكلها الأصلي.

وأفضل السترات الصوفية كانت تلك المنسوجة باليد، وبعض المجوهرات الملوّنة، والخطوط المتكسّرة، تجذب أنظار الجميع. وفي المناسبة الهامة تنادي المعلّمة على إحدانا لكي يتفحّص أحد

---

[57] دانييل اوكونر (1775- 1847): قائد وطني وخطيب أيرلندي، أدّى انتخابه في مجلس العموم البريطاني عام 1828 إلى قبول التحرُّر الكاثوليكي. - المترجم

[58] إيمون دو فاليرا (1882- 1975): رجل دولة أيرلندي. ترأّسَ الشين فين عام 1917 ومجلس الديل في البرلمان بين عاميّ 1918 و1922. شكّل حزب فلانا فيل الوطني عام 1927؛ أصبح رئيساً للوزراء بين الأعوام 1937 و1948 ثم بين 1951 و1954 وأصبح رئيساً لجمهورية أيرلندا بين عاميّ 1959 و1973. - المترجم

[59] الخث: الطبقة العليا من التربة المزروعة التي تحتوي العشب وجذوره.

Twitter: @ketab_n

الأشخاص السترة. مَنْ؟ لقد نسيت. نسيت كل شيء ما عدا التموجات الجميلة للون، والسحّاب ذا الشرّابة المُرقّطة في نهايته، وثنيات الكُمّين المُضلّعة من الصوف الأزرق، المطويين مرّتين في حال نمت قامة مرتديها. كنا نرتديها في أيام الآحاد، في الأيام المقدسة والأيام التي يحضر فيها المفتشون. ونقول لمفتش كتاب العقائد إنه بعد معجزة الأرغفة والسمك، وبعد أنْ أكل الجميع حتى الشبع، طلب المسيح منهم أنْ يجمعوا الفُتات وهذا يعني أنه لا يميل إلى التبديد.

كان السمك في مخيلتنا لحماً ورديّ اللون، متوسط الحجم كسمك الداب، وكان الخبز أبيض كخبز المذبح، لكنه أكبر حجماً وانتفاخاً. والمكان الذي حدثت فيه المعجزة كان مكسواً بالخُضرة وتكثر فيه النباتات وليس مساحةً رمليّة فقيرة كالتي سنراها لاحقاً. وبعد رحيل المفتّش نتلقّى جميعاً التوبيخ، ويُقال لنا إنّه كان يمكننا أنْ نقوم بمسح الريف بعقولنا لكننا بدل ذلك اخترنا أنْ نكون أوغاداً. والفتيات الوحيدات اللائي لم يتلقّين التوبيخ كنّ البلهاوات ولا يُتوقّع منهن أكثر من الالتزام بالقواعد. وذات يوم أصبحن هنّ الفخورات اللائي يقفنَ معقودات الأذرع، ومُنحنَ ما يُشبه التقريظ بسبب مظهرهنّ المُرتّب، أو لأنهنّ كنّ يعرفن متى يُغلقن الباب أو يضعن الخث الجاف على النار.

كل شيء كان مُفاجئاً جداً. كان يمكن للمعلّمة أنْ تثور، وتنتابها نوبات الغضب، وتداعب بعض الفتيات على خلفيّة رُكبهنّ، وتكل أخريات ببعض الأعمال، ومن ثم تغيّر فجأةً رأيها وتُطري أولائي اللاتي كانت سُمعتهنّ قد شوّهت. ولكن عندما يصل أستاذ الصِبية إلى شفا الانفجار يسود الهرج والمرج المكان. كان يهدر ويصرخ

Twitter: @ketab_n

ويُصبح كل فتى مُجاور له مُعرَّضاً لخطر سحق دماغه على المقعد. كان يمكن سماعه عن بُعد ميل، يزأر على الفتى عاثر الحظ الذي يتصادف أنْ يكون قريباً منه. كان مصدر تهديد دائم كالميش بالقرب من بركان فيزوف. كانت زوجته تصلي، ودائماً تثرثر، وتخبر النسوة على طريق العودة من القُدّاس أنه لا يعرف ماذا يُريد. كان يحل كلمات متقاطعة، ولديه كلاب صيد عصبيّة ونتيجة لذلك كانت الأجزاء الخشبية في منزلهم المتنقّل تحمل آثار أسنان كلاب نابحة وحانقة.

كان التوتُّر يسود صباح أيام الاثنين بصورة خاصة – فمواضيع الإنشاء سُلِّمتْ أو لم تُسلَّم، والأكاذيب قيلت، كيف مرضت الأم أو الأب ونار المدرسة التي ليس في الحسبان أنْ تشتعل بما أنها لم تُضرم منذ يومَين كاملَين. مواضيع الإنشاء كانت عادة تدور حول «يوم في حياة بنس» أو «يوم في حياة ملك» أو «يوم في حياة نحلة»، وكان علينا أنْ نؤدي فروضنا المدرسية بينما تجلس هي لتُصحِّحها وتضحك بشكلٍ مُشين على تفاهة أفكارنا وتفكيرنا. كانت إحدى الفتيات تستعمل المِسطرة كأداة استقصاء وتقتفي مسار النهر، نهر شانون في الغالب، برافده الهامّ، نهر السوك، وبأطراف عيوننا كنا نتخيَّل أذيال الفئران وهي تتلوّى فوق مستوى الثقوب، أو نُحدّقُ إلى برطمانات المربّى التي تضم أزهار الليلك التي جلبتها إحدى القرويات وذوت على عتبة النافذة بحيث أنَّ قِطعاً صغيرة من البتلات كانت مُلقاة كنُتفٍ من المِسك ويكون ماء البرطمان قد جفّ.

أحياناً كان يسود عالمٌ مختلف كل الاختلاف – عالم من الأسلحة، والخوذ، والرماح، و لوغيد لايسيش، ابن لاي، ابن الشهير كونال سيرناك، رئيس فرسان برانك الحُمر في ألستر، الذي ذبحته

Twitter: @ketab_n

بصورة مُشينة قبيلة تمَّ الانتقام منها بوحشية لاحقاً. أو قصيدة عن أوين رو أونيل[60]، «الذي سمّموه لأنهم خشوا أنْ يواجهوه بالسلاح»، أو وصف لجسد شين أونيل المُستخرَج من كاريكفرغوس، مقطوع الرأس وأُرسِلَ إلى دبلن حيث عُرِضَ على فتحات سور القلعة. وكان شين أونيل رجلاً صلباً لأنه عندما أُبلِغَ بأنَّهم اغتالوا ابنه الوحيد أجابَ بأنَّ لديه أبناءَ كُثراً. هذه المعلومات التاريخية اليومية الراسخة، شديدة القُرب، وتعصر القلب والآسرة إلى درجة أنه كان من الممكن اعتبار سارسفيلد، وشين أونيل وبولد روبرت إيمت، وسارا كوران[61] محبوبته، شخصيات يمكن أنْ تخرج من الصفحات المكتوبة إلى أرض الغرفة. فكلهم ضحوا بأنفسهم من أجل القضيّة، وكلّهم فشلوا – واحدٌ ذهب إلى منفى حقير، والآخر قُطِعَ رأسه ووُضِعَ على أعلى سور القلعة، والثالث أُعدِمَ في سفينة ليبرتيز وألقى خطاباً من حوض السفن هزَّ القلوب – عن أنَّ دمه لم يتجمَّد بسبب ألوان الرعب المُصطنع، وأنه على الرغم من أنَّ مصباح حياته كاد ينطفئ إلا أنه مستعد للموت ولم يطلب إلا نعمة الصمت إلى أنْ يحين الوقت ويتحرَّر بلده ولا يعود تابعاً لإنكلترا.

الحسناء سارة كوران رحلتْ إلى الخارج وتزوجتْ وطبعاً ماتت كسيرة القلب. وبالنسبة إلى ثيوبولد وولف تون[62]، أيضاً، لُعِنَ الشرف بالهزيمة. في عام 1796 ذهب إلى باريس وفي جيبه مائة جنيه لكي يؤمِّن قوة كبيرة تساعده في قلب الحكومة البريطانية في

---

60 أوين رو أونيل: جندي شجاع سليل عائلة أونيل العريقة في القرن السابع عشر

61 سارا كوران (1782- 1808): ابنة محام أيرلندي بارز. لها قصة حب شهيرة مع روبرت إيميت. – المترجم

62 ثيوبولد وولف تون (1763- 1798): ثائر أيرلندي. أُعدِم. – المترجم

Twitter: @ketab_n

أيرلندا. وكانت النتيجة حملة بانتري باى، وأبحر تون إلى أيرلندا مع جيش يتألّف من خمسة عشر ألف رجل بقيادة الجنرال هوش والجنرال غروتشي. ووقائع تلك الرحلة دُوِّنتْ على صورة رسالة موجهة من ابنٍ إلى كلٍ منا:

«لا زالت الريح عاتية، و كالمعتاد أبحرنا قُدُماً؛ و خشيت أن نتلقى زيارة من الإنكليز؛ و في العموم أنا في حالة اضطراب شديد. آه، حالما نرسو على الشاطئ، فليكن بعدها ما يكون؛ إنني أحنّ إلى روح هذا التشويق... نحنا هنا، ست عشرة سفينة، كبيرة و صغيرة، منتشرة في أرجاء مرفأ نبيل، وموزّعة إلى درجة أنّ العدو أصبح شديد الاقتراب بحيث إذا انفجر الوضع هذه الليلة كما حدث ليلة أمس فسوف يشتبك بعضهم مع بعض، إلا إذا فضّلَ أحدهم أن ينتقل إلى الشاطئ».

ثم كان الجزء المرير – غرقت ثلاث سفن، والأخرى تشتّتَ بعضها عن بعض، وظهر اختلاف في الرأي مع غروتشي وهبّت عواصف عاتية كتلك التي أثارت خوف تون من أنّ قَدَره أنْ يستسلم ويتراجع إلى فرنسا. وبعد ذلك بعامَين قاد أسطولاً آخر فتفكّك، وأسره الإنكليز وقادوه إلى لوغ سويلي. وأُخذَ تون سجيناً. وبينما المِقصلة تُنصَب خارج سجنه، حزَّ عنقه بسكّين جيب لكنه لم يمُتْ فوراً وقال للطبيب الجرّاح إنه من المؤسف أنه كان مُشرِّحاً رديئاً.

يكفي أنْ يُلقي المرء نظرة من النافذة الطويلة ويتخيَّل الصواري، والحِبال، والروافد الخشبية، ودفات التوجيه حتى تظهر الأشرعة من فوق الأسوار التي تعلوها الزجاجات. كان البحر يبعُد أربعين ميلاً، وكما قيل لنا، تقفُ في وجهه من أحد الجوانب مجرد أجراف سوداء شاهقة ومشرقة، عبرها سقط قسٌّ عصرَ ذات يوم، بينما كان يصطاد السمك. ولا أحد يعلم إنْ كان قد منح نفسه الغفران

Twitter: @ketab_n

أو حتى جهر بندمه أثناء سقوطه نحو الأسفل في أعقاب صنارة صيد السمك القصب التي كان قد اشتراها من مخزن الخردوات في اليوم السابق. إنَّ البحر يعني الكارثة ولكن هذا شأن المياه كلها، حتى نهر شانون المهيب الذي غرقت فيه سيارات، أو انقلبتْ قوارب أو انتحر رجال. كانت بحيرة شانون تشعّ في الصيف وتصبح ضبابية بفعل ذبابة خاصة في شهر أيار، ذبابة تُستخدم في صيد السمك، أو الغطس – لوغ ديرغديرك – بحيرة الملك ذي العين الحمراء، لُقّبَ هكذا لأنَّ شاعراً طمّاعاً بدرجة غير معقولة طلب من ملك ثوماند عيناً، فعمد الملك على الفور إلى اقتلاع عينه، وأعطاه إياها، وهبط إلى البحيرة لكي يغتسل، لكنَّ محجره ظلَّ ينزف إلى أنْ تحولت المياه وأضحت دماً بشرياً.

بطل آخر من أبطالنا كان باتريك سارسفيلد، لورد لوكان، الذي دعمَ قضية الكاثوليك وجيمس الثاني خلال حرب اليعاقبة في أيرلندا. وثمة صورة فوتوغرافيّة أُخِذَتْ عن رسم شخصي له تبيِّنه وهو يضع شعراً مُستعاراً بخصلات مُجعّدة، ويرتدي درعاً وربطة عنق بيضاء مُخرّمة على الطريقة الفرنسية. وكانت المُعلِّمة تضرب عصاها على الأرض بقوة وتتلو:

وداعاً يا باتريك سارسفيلد

فلتلقَ الحظ في دربك

مُعسكرُكَ تشتَّت شمله

وعملك تشوَّه منذ سنين!

وتحكي لنا مراراً وتكراراً كيف غادرَ سارسفيلد مدينة ليمريك ذات ليلة خِلسة مع هوغان السريع العدو، قاطع الطريق الشجاع،

Twitter: @ketab_n

وثلّة من الرجال لاعتراضِ قطارٍ يحمل ذخيرة لأنصار وليم الذين يضربون حِصاراً حول المدينة. وكان الحظ حليفهم في تلك الليلة، فالقمر غائب، وحوافر الجياد خرساء، وكان هوغان يعرف الدروب الخلفيّة والفرعية وقابل أحد الجنود امرأةً ثرثارة، زوجة أحد أنصار وليم وسرّبت إليه كلمة السر، «إنَّ سارسفيلد هي كلمة السر وسارسفيلد هو المُستهدَف». اخترقوا صفوف العدو، وفجّروا ثماني عشرة عربة من القطار والذخيرة، وكانت الضواحي شاسعة في تلك النواحي من البلد بحيث أنَّ الأرض كانت تؤجَّر. كان سارسفيلد هو زعيم الثورة لكنَّ اسم هوغان السريع العدو كان أيضاً مشهوراً، كقاطع طرق، كان أحد تلك الثلة من الرجال الذين يُقاتلون بالرماح والمناجل والبنادق القديمة، ويختبئون بين التلال حتى هبوط الليل، ويلبدون كالقضاعات في الماء، لكنهم سريعو الحركة كضباب الجبال، ولا يُستهان بهم في شلّ العدو. لكنَّ باتريك سارسفيلد أصبح «قضية خاسرة». ونرفع أبصارنا إلى السماء ونفكّر في التحليق وإذا كان هذا غير كافٍ نقرأ:

«وللأسف جاء أشدّ الأيام حزناً حلَّ في أفق أيرلندا. أظلمتْ الشمس، غطّتها غمامة سوداء كأنها لا ترغب في مشاهدة مثل ذلك المنظر المُريع؛ لم يكن هناك من داعٍ للمطر كي يُبلل الأرض، فدموع الأيرلنديين المبتلين بللتْ تراب الوطن الذيّ كانوا في ذلك اليوم يودّعونه الوداع الأخير. أولئك الذين عزموا على الرحيل عنه لم يأملوا في رؤيته من جديد وأولئك الذي اتّخذوا القرار المؤسف بالبقاء هناك، لم يكن ينتظرهم في الوقت نفسه غير الاحتقار والفاقة، والسلاسل والسجن وباختصار ألوان البؤس كلها التي يمكن لأمة مقهورة أن تتوقّعها من السيطرة والحقد».

إنَّ هذا مجرّد رؤوس أقلام كما قالت إذا ما قورنَ بوصف المجاعة، كان الهواء كما كتبَ جون ميتشل هادئاً وكأنك في متنزّه، والصمت

Twitter: @ketab_n

شاملاً، والفقر يزحف إلى كل مكان، والعجز عن صبّ اللعنات لأنَّ الانفعال الإنساني كان قد خفتَ بسبب المجاعة؛ كانت عيون الأطفال جامدة وذابلة، وأدوات العمل التي كانت تُنشئ الأسوار وتشقّ الطرقات أضحت خرساء كالأشباح، والنساء تجرّدن من الأنوثة، والطيور لم تعُد تغرِّد، والغربان كانت تسقط ميتة أثناء طيرانها، والكلاب التي سقط شعرها وأضحت فقراتها أشبه بمنشار من العِظام تنزلق داخل الخندق كالذئاب والـ anima mundi (الروح العالمية)، روح الأرض، توشك على الاحتضار أو هي ميتة. عالمٌ حيث المساعدة والشفقة لا وجود لهما.

كتب قاضي الصُلح في كورك إلى دوق ويليفتُن يُخبره كيف أخذ مقدار ما يستطيع خمسة رجال حمله من الخبز إلى سكان قرية جبليّة، واعتقد أنهم جميعاً موتى، ولكن حين ولج أحد الأكواخ أدرك لدى سماعه أنيناً خافتاً أنهم أحياء، مائتا شبح أو نحوهم غالبيتهم في حالة هذيان. امرأة كانت قد أنجبت تواً نزعت عنه ياقة قميصه، وأخرى شوهدتْ تنبش جثة ابنتها، فتاة من الثانية عشرة، وتتركها مُغطّاة جزئياً بالحجارة. وكان سبعة من البؤساء مكوَّمين معاً تحت رداء واحد وعلى الرغم من أنَّ أحدهم كان ميتاً ولكنْ بدا أنَ الآخرين لا يلاحظون أو لا يأبهون. وطلبَ من الدوق أنْ يذهب إلى الملكة الشابة الكريمة، ويناشدها كي تستخدم سلطتها، وباختصار لتسمح للأيرلنديين أنْ يأكلوا بعضاً من الذرة التي نمت بوفرة في ذلك العام. وناشدَ أنْ تُكسَر أغلال الروتين الرسمي الباردة والمُهلهلة وأنْ يتوجَّه الدوق مباشرةً إليها. لكنَّ إرسال الرسالة كان عبثاً ولم تُلبَّ الاستغاثة. بعضهم بقيَ على قيد الحياة على أكل أشياء مثل الشوك، وعشب الطير أو الحُمّاض والبعض الآخر استطاع أنْ يمشي مترنّحاً حتى أفنية الماشية في الريف على أمل أنْ يتمكن من تدبير

Twitter: @ketab_n

حصّة من الدماء المأخوذ من العجول والثيران. أما الباقون فأبحروا إلى أميركا ولابد أنهم اليوم يكوّنون هناك ما يفوق أربعين مليوناً من أصل أيرلندي.

في العام التالي قامت الملكة بزيارة أيرلندا ورأتْ أنَّ كل شيء يسير على أحسن ما يُرام وعندما وطئتْ الشاطئ في كوف، مقاطعة كورك، كان الحماس هائلاً. من المُحتمل أنَّ الشعب كان من فرط الوهن بحيث يبدو أي شيء خِلاف ذلك ومع هذا تفوقوا على أنفسهم حسب قولها، بأنْ أصبحوا كثيري الضجيج، وبالقفز والصراخ.

إذن هي مواضيع الاضطهاد نفسها – القتل، وسوء الفهم، والثورات المُحبَطة، والمُخبرين، والفوضى والعمل العشوائي، والتعليمات المسموعة خطأً وسط وطيس المعارك، والفلاحون شبه المُدرَّبين يُخطئون ويرمون أسلحتهم وحتى دروعهم ويستجدون ربعاً في مكانٍ قذر قبل أنْ يُقتَلوا. وإحدى الفتيات – ابنة طبيب تحمل ساعة يد – ترفعها عالياً لكي تراها المُعلّمة، ومن ثم يحين وقت الرحيل، ونكون قد بدأنا تواً، كقطيع، بينما الناقوس المسودّ يقرع «كلينغ كلانغ كلينغ كلانغ». ونترك خلفنا مقاعد الدرس السنديان المغطاة بالكتب وبالخربشات وفجأةً تصبح المعلّمة هادئة، وغامضة، ومُحدِّقة، وربما تتساءل ماذا يمكن أنْ تفعل في ما تبقّى من النهار دون إزعاج وبعيداً عن صحبتنا.

خارج الباب، يظهر مباشرة مشهد لشجيرات الزعرور البري، ثم أربعة أكواخ متداعية يُكملها شبه أبواب، قِبالة منزل الطبيب مباشرة بكلبه الهجين الذي اسمه سبوت. ولكي يُسمح للصفار بالدخول كان عليهم أنْ يلجؤوا إلى الباب الخلفي، وهذا بعد قطع

Twitter: @ketab_n

ممر مسدود يرى المرء نفسه محجوزاً مع سبوت أمام سخرية اثنين أو ثلاثة من رفاقه. يصرّ سبوت أسنانه، وكأنه يقوم ببعض التمارين، ثم يُكشّر عنها بحيث يراها المرء مع اللسان الذي يتراوح لونه بين البنّي المُصفرّ والوردي الباهت. وتعلم أنَّ الأمر يتعلّق بالتكتيك، وليس بالسير بُخطى سريعة، وأنتَ تشد حاشية معطفك نحو الأسفل حتى تكاد تلمس أعلى جوربك، بحيث لا يبقى الجلد مكشوفاً ليغويه، وتحملُ غصناً دون أنْ تلوِّح به، وتحرص على ألا تكون مُهدِّداً. ويقبض على ذيل المعطف، وتصرخ وفي تلك اللحظة يخرج واحد أو اثنان من السكان وينحنون بطريقة مسرحية ويدعونك إلى الدخول.

في الداخل هناك مدفأة لا مثيل لها في الجوار، مكسوّة بالمينا ولا أقلّ، وبلون الغيوم عندما لا تكون زرقاء تماماً ولا رمادية تماماً؛ مدفأة، وساعة الجد وسكاكين مائدة على الطاولة من أجل عشاء من صِنفَين، الصنف الرئيس والحلوى. وتُعاقَب بالضرب على اليدين. الزبد لونه أصفر ويعوم في شق في الأعلى وتبتلعه دون مضغ لكي تصل إلى دقيق النشا أو السميد أو الكعكة المُعدّة على البخار. الكعكات المُعدّة على البخار كانت الألذّ خاصةً عندما تُخرَج من الوعاء وتُقلَب رأساً على عقب بحيث يسيل غطاء من المربّى عن الحواف كسيل يُغطي حجراً. وتوقُّعُ المتعة يُشيع فيك القشعريرة. كل شيء يترنَّح، وتُصبح الصِلة بين عينيك والجدران مختلفة بحيث أنَّ ورق الجدران أو الدهان الصقيل ينسلخ عن الجدار.

في الطريق إلى المنزل قد تربُتُ سيدةٌ على واجهة محل بصنارة النسج وتطرح سؤالاً لا معنى له مثل «كيف حال أمك»، أو «كيف حال أبيك». وامرأةٌ بدينة تجلس على كرسي شبيه بالسلّة وذات صدر ضخم ودبّوس بلون العلّيق مُثبَّتٌ إلى وسطه، تطلب منكِ بلطف أنْ

Twitter: @ketab_n

مُرّي، مُرّي، لأنكِ تحجبين عنها الشمس، ورجلٌ مولعٌ بالحذلقة يستطرد ويتحدث عن اعتدالِ الطقس وعدم اعتداله، كما قد يكون الحال ربما، وعن الروائح السامة المنبعثة من سوق الخنازير، وعن رجحان شؤون القلب واستتار الشعور (أعتقد أنه كان يُحب أمي).

لكنَّ غالبيّة باقي الرجال مجهولون ويتمُّ التعرُّف إليهم من أحذيتهم الضخمة ونخيرِهم وعصي خشب الدردار والخوف الذي يُثيرونه. كانوا مجرّد أسماء – والد الفتاة الفلانيّة أو صاحب آلة جزّ العشب أو صاحب الكلب العلاني. كلهم كان لهم ألقاب، وكلهم كانوا ينطوون على رغبات دفينة. أحد الرجال كان يختبئ خلف شجيرات السياج كامناً في انتظار الفتيات، يلفّ سبّابته[63]، ويلفُّ طرف لسانه[64]، ويحلّ فتحة بنطلونه ويجرّ فتاةً عاثرة الحظ إلى هناك بنعومة. على الأقلّ هذا ما قالته الشائعة. كان ذلك يحدث في طريقٍ موحشة، في الطريق إلى المقبرة، في دربٍ نادراً ما يُطرَق، ما عدا في مواكب الجنازات. أحياناً في البلدة، كانت الفتاة منا تشتري ببنس أو بنصف بنس حلوى، كحلوى قوس قزح، أو أقراص نعناع فوكس، أو اللوز المُحمَّص، وتمصّ كل واحدة منها ببطء، ويكون عبورها للبلدة في طريق عودتها إلى المنزل من المدرسة بطيئاً ومختلساً، تحدّق ببلاهة إلى النوافذ، تنتظرُ حدوث مفاجأة، تنتظرُ عيد الميلاد – دائماً تنتظرُ عيد الميلاد. لقد كان عيد الميلاد هو ذلك الرذاذ البرّاق المنهمر على جانبيّ النافذة ذات الستارة الجوخ، قميص داخلي أو مبذل مُزوَّد بكرة ملوّنة، والجورب الواسع المشوب بخيوط بيضاء الذي يضم مؤونة من المباهج السريّة. عيد الميلاد

---

63 يلفُّ سبّابته: استجلاباً للحظ الحَسَن. – المترجم

64 دلالة على توقُّع المتعة. – المترجم

Twitter: @ketab_n

كان هذا، وبقطينةً في داخلها شمعة مُضاءة، في حال مرَّ المسيح مُصادفة من أمام بابك ورغبَ في الدخول. عيد الميلاد كان ثلاثةَ قداديس في يوم واحد وعشاءَ عيد ميلاد، وقبل زمن بعيد – ولكنكَ لا تعرفُ هذا – كان عيد الميلاد بالنسبة إلى جيمس جويس كعكة الخوخ وزبد البراندي، والسعادة التي خيَّمتْ على مائدة العشاء وعكَّرَتها امرأةٌ واحدة متديّنة وحانقة على بارنل المُفسِد، وتشاجرت مع أحد الضيوف.[65]

وتجتاز مجلس المدينة أصفر اللون حيث يأتي اللاعبون مرتين في العام، حيث تُقام رقصات عشاء أحياناً، وفي ليلة يوم الأحد رقصٌ بأربع بنسات حيث تقع الفتيات حتماً في المشاكل؛ وتعبر الجسر الحجري حيث تغسل المياه المصبوغة باللون البُنّي من دفق مشروب البورتر الصخورَ الضخمةَ وتشطف نافذة الفندق وخلف تلك النافذة في ظلام المطبخ، يشرب الرجال البورتر وتشرب ثلاث «سيدات متهتكات» – إحداهن قصّتْ شعرها قصيراً جداً – الجِن و«يشربنه»[66] وحالما يسكرن يُصبحن «شبقات للمضاجعة».

حتى في أفضل الأيام والشمس مُشرقة، وأوراق الشجر تتمايل بتناغم جميل، والنحل يطنّ، والماشية تشرب على ضفة الماء، كان يتلطّى ما يُشبه الرعب. قد يحل الرجال بنطلوناتهم، خاصة الرجل العاطل عن

---

[65] تشارلز ستيوارت بارنل (1846- 1891): قائد ثوري بروتستانتي أيرلندي. أحد أهم القادة الثوريين في القرن التاسع عشر. وسبب وصفه بالمفسد يعود إلى أنه أقام علاقة مع امرأة متزوجة وحثّها على طلب الطلاق من زوجها. وهذا المشهد مذكور في أقصوصة جيمس جويس «الموتى» التي تضمّها مجموعته «أهالي دبلن»- المترجم

[66] الإشارة هنا إباحيّة!

Twitter: @ketab_n

العمل الذي يجعل من ذلك اختصاصاً له والذي يستدرج الفتيات إلى المستنقعات حيث يُصبحن بلا حول ولا قوة. أو قد لا يأخذ السمكريون واحداً ويبيعون واحداً في سوق الخيل للغرباء. أو قد تقابل خُنثى مُصادفة جالسة متباعدة الساقين على عربتها الكبيرة فتسري أولاً القشعريرة في بدنك ومن ثم ينقلب داخلك إلى الخارج وكأنَّ أحشاءك نُزِعَتْ. وحدهن النساء آمنات في مرورهن وحتى هنّ قد يلقين خطبة مُطوَّلة حول شيء لا تفهمه كقولهن أنَّ الحليب فسُدَ أو أنَّ البقرة وضعت عجلاً ميّتاً. وكانت هناك نساء مجنونات أيضاً ينتفضنَ ويتخبَّطن، ويرمين مناديل ويقلن «كلا، كلا» عندما يكبّلهنّ إخوتهن أو حُرّاسهنّ ويجرونهنّ إلى المصحة العقليّة. وحدهن الأمهات كانت صحبتهن آمنة.

الأمهات كنَّ الأفضل قاطبة. فالأمهات يعملن ويقلقن ويُضحّين وينلنَ أقلّ الحصص عندما تجلس العائلة لتتناول الطعام، والأمهات يرتدين المآزر ويعملنَ كالعبيد والأمهات يذهبنَ إلى الجمعيات الخيرية في مساء يوم الأحد ويتهامسن فيما بينهنّ بأشياء في حَرَم المُصلّى عن أرحامهنّ وأحزانهن. والمرأة التي تزور قبر زوجها دائماً تتناول يدك، وتصافحها بحزم، وعلى الأثر تطفر الدموع من عينيها المُصابتَين بالمياه الزرقاء.

مثل هذه الأمهات لا يجلسن تحت أشجار الصفصاف أو على السجادة ويُنظّمن النزهات الخلوية ويوزعنَ المُقبّلات من سلة الأطعمة اللذيذة. لا يُهَمْهِمْنَ بلحن أبداً أو يرقصن وحدهن. وإحدى الأمهات أجرت عملية جراحية وسُمِحَ لزوجها بالدخول لينظر إليها وهي نائمة وعارية على الطاولة. وكانت تلك حادثة شائنة. لكنهما كانا من البروتستانت. وتلك الأم برأتْ، وصنعت مُثلجاتها بنفسها، بطعم العلّيق، ملْ مغرفة شهيّة، رطبة، لذيذة من اللون الأحمر.

Twitter: @ketab_n

وكانت لديها خادمة منزل.

خادمات المنازل كنَّ متشابهات، رثّات، دائماً يأتين من الجبال، خادمات توقفن عن التردد إلى المدرسة في سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة، لا يُحسنّ القراءة أو الكتابة، وفي أعناقهنّ حشد من الإخوة والأخوات، مهووسات بسرقة الأشياء الصغيرة، في جواربهن نسلٌ، ودائماً يأكلن بنهم عندما تكون سيدات المنازل في الخارج. ويُعاقَبنَ بحبسهن في العلّيات وغرف سقط المتاع حيث يصحنَ ويصرخن إلى أنْ يتم الإفراج عنهنّ أخيراً ولكن من دون تناول العشاء ويؤنَّبن إلى درجة لا تُطاق.

وتصعدين إلى الجزء التالي من التل نحو دكان الحدّاد ومشهد الشرر الأحمر المتطاير من أثر ضرب المطرقة على الحديد الساخن حتى الاحمرار، وإنْ لم يكن رائعاً كالنجوم. في الداخل مزارع أو اثنان ينتظران، والحدّاد يواصل الطرق، والتجشُّؤ من الأمام أو من ناحية الذيل يُقدم برهاناً على توتُّر الحصان وعصبيّته. وقريباً ستصلين إلى المنزل لتؤدي واجبك المدرسي.

لكنَّ الدرب يزداد وحشةً، ويقلّ عدد المنازل، ثم تختفي تماماً، ثم يأتي الدفق الذهني للأخطار الكبرى – السمكريون، المُختطفون، الخنثويون، والغريب الأطوار، أو الرجل الذي أنزل بنطلونه وقال «تعالي هنا لأفعلها فيكِ»، وفعلها بجوار المضخَّة، بحيث إذا ما أتى أي شخص يتظاهر بأنه قرَّر أنْ يستحم. وتتقطع أنفاسك، وتضمين إليك حقيبة المدرسة وكأنها شخص، وتنطلقين في الجزء الأخير من الطريق الخالي من الأكواخ، أو الأشجار، والجدار العالي الذي يحدّ أرضنا حيث كتب أحدهم عبارة «المزارعون في الأعلى»، وجدعة

Twitter: @ketab_n

شجرة جوفاء مملوءة بالدبابير، وبقايا الشجرة التي سقطتْ قبل ذلك بوقت طويل أثناء إحدى العواصف. ثم البوابة العنيدة بمشبكها ذي الصرير الزاعق، ومفصلها المعطوب، المُثبَّتة إلى الدعامة الحجرية التي على سطحها رقمة صغيرة ملساء يجب لمسها مراراً وتكراراً استجلاباً للحظ السعيد، لكنَّي لم أتمكَّن، بسبب الحاجة المُلحّة لبلوغ المنزل، ولكن كان لابد من لمسها بسبب الحظ العاثر المُلازِم، وهكذا كانت هناك سلسلة سخيفة من الركض جيئة وذهاباً من التردُّد في لمسها وعدمه، وإعادة لمسها، واستمرّ الركض، ومن ثم طبعاً يحدث أشدّ الأمور بثّاً للخوف، كأنك تُلامس قوة خارقة، لأنَّه من تحت الشجرة الفلانية يظهر رجل، حارس بوابة عجوز كان قد توفي بسبب خطأ؛ ثم هناك الماشية، وتحديقها، ورؤوسها الكبيرة، وتباهيها وخوارها، والرقاقات التي على قرونها تلمع تحت أشعة الشمس، ماشية تتباهى وتخور – وماذا ينتظرني في المنزل؟ ذات مرة وجدتُ مفتش الحَرْث، وكان لابد من استرضائه بالشاي والكعك قبل أنْ يخرج للتفتيش على مساحات القمح والشعير الصغيرة التي تكاد لا تكفي؛ وفي مرة أخرى جراء فئران ميتة في كيس من طحين «السوق السوداء» الأبيض، فئران صغيرة مُغبرّة اجتمعت معاً قبل أنْ تختنق؛ أو ربما واجهات غاية في الأناقة، أو ستائر مُخرّمة جميلة بيضاء كالثلج، أو رائحة شمع وشعور قوي بالبهجة والعطر وكأنَّ حتى الأزهار الاصطناعية تشبّعت بحياة خاصة بها. وأحياناً يُفحَصُ شعر الفتاة منا بحثاً عن قمل صغير: فينحني الرأس على طاولة المطبخ والمشط العاج الدقيق الأسنان يكشط، حافراً في جلدة الرأس، وشهقات رعب أثناء سقوط القمل على الصحيفة وزحفها في كل اتّجاه لتنجو بحياتها. وتلاقي حتفها بضغط من ظِفر الإبهام. تكون أعداد القمل كبيرة وتُنقَل الفتاة

Twitter: @ketab_n

منا بين ليلة وضحاها إلى نهر شانون. وتصدِّق هذا، لأنكَ في مزاجٍ يسمح لك بتصديق المستحيل واعتباره ممكناً.

العجائب لم تكن يوماً مُستبعَدة. هناك عجيبة أيمي جونسُن والرجل الذي أحبّتْ، أو مَنْ صفّفَ شعر السيدة سيمبسُن، أو ملاجئ الغارات الجويّة في لندن حيث يُقالُ إنَّ الناس كانوا يقومون بأشياء مشؤومة وإنَّ الغرباء يرفعون الكلفة فيما بينهم. وارتُكِبَتْ جرائم قتل مُريعة لا صِلة لها بالحرب بأي حال، على يد رجل يُغوي النساء ويستدرجهم إلى الحمّام. يا لوثيّة لندن. يا لوثية إنكلترا.

ذات يوم وصل سربٌ من نحل العسل. تجمَّعَ على أحد جدران حديقة المطبخ، وتمّت مناقشة خطط للقبض عليه ووضعه في خلية نحل قديمة، ومنذ ذلك الحين أصبح الحصول على عسل من أجل الشاي مسألة تتعلَّق بأيام الصيف، وتوزّعتْ أقراصٌ كثيرة في أرجاء المكان كله، وتوفّر عسل يغرف منه المرء حتى يشبع. وصعدت أمي والعامل إلى فوق وانتعلا الحذاءين الطوليّ العنق، ومعطفيّ المطر الطويلين، واعتمرا قبعتين قاسيتين، ولبسا القفازات ووشاحاً يُحيط بالعنق، حرصاً منهما على ألا يبقى أي جزء منهما مكشوفاً وفريسة لعقص البرد. بَدَوا أشبه بشابّين يُلاحقان عصفور صعو وكان لباسهما شديد الغرابة حتى أنهما هما نفسيهما ضحكا على شكلهما، على الرغم من أنه لم تكن هناك مرآة في الطابق السفلي لكي يستعرضا نفسيهما. كانت هناك فقط مرآة الحلاقة الموضوعة بين نافذتَين، ومشهد التقريع المُطوَّل في صباح أيام الآحاد عندما يثور غضب والدي قبل الذهاب لحضور القدّاس. وقرّروا أنْ يقبضوا على النحل بأوعية شيّ اللحم

Twitter: @ketab_n

الكبيرة. وأحضرتْ أمي أيضاً مروحة جميلة من الشاش الأسود، لكي تجمعه بها، إذا لزم الأمر. وسمعنا بوابة حديقة المطبخ تُغلَق ومن ثم فجأةً صرخة مدوّية تبعها صمتٌ ثم سؤال أمي عالي النبرة «أوه، يا إلهي، هل قرصوه مرتين؟»، وسمعنا لاحقاً أنَّ نحلةً دخلتْ إلى قبعتها القاسية، وأثناء وصفها للألم الذي كانت بارعة فيه، قالت إنَّ الأمر أشبه بمسمار صدئ بطول ست بوصات يُغرَز فيها. وتمّ التخلي عن المشروع وبدل ملاعق العسل عُدنا إلى المربّى المنزلية، مربّى العلّيق، وهُلام التفاح الكهرماني الحامض قليلاً، المُنكّه بالبهارات.

حينئذٍ كان الطقس قد تحسّنَ أو أنَّ فترة الطقس الجيد قد امتدّت وبدا أنَّ أمسيات الصيف والسماء الذهبيّة المُحمرّة يطول أمدها حتى منتصف الليل، وكانت الأبواب كلها تُترَك مفتوحة على مصراعيها، لكي تدخل منها النسائم. وكانت هناك كراسٍ للعب الورق قابلة للطيّ يمكن حملها ووضعها في واجهة المنزل، لغرض التشمُّس. وذات مرّة عرَّجَ علينا قس شابٌ دون إنذار، وكان لابد لي أنْ أرتدي سترتي الصوف على عَجَل وأثبّت أزرارها. أعدّتْ أمي صينية الشاي، وراحت تتوسل إليه راجيةً كي يأكل بيضَتين مسلوقتَين قائلة انظر لدينا ملء مصفاة منه. في أول الأمر تردَّد، قائلاً إنه تناول نصيبه من الشاي تواً، وينبغي أنْ ينتبه من زيادة وزنه. وضعَ يده الشاحبة على صدره المرتدي قميصاً أسود جميلاً ذا طيات والخالي من أي قدرٍ من اللحم. وهكذا أكل بيضتين، واحدة بيضاء والثانية بنّية، مسلوقتين بالقدر المناسب، مع ملعقة صغيرة خاصة بالبيض مُزوّد مقبضها برسم لورقة نبات، وملح من مملحة من الزجاج المُزخرف، ومستردة مُصنوعة حديثاً في وعاء، لأنها كانت

Twitter: @ketab_n

قد جلبتْ مع البيضتين صِنفاً ممتازاً، ولا شيء غير الممتاز، من اللحم المُقدَّد البارد، بقيَتْ من وجبة عشاء الليلة الفائتة. وكم أبدينا اهتماماً به، أبعدنا عربة الشاي حتى حافة الدَرج، وأحضرنا وسادة ثانية ليسند ظهره عليها، وسألناه إذا كان يُحب أنْ يشرب الحليب أولاً، ونحن نُخاطبه بـ «أبتِ، أبتِ»، ولاحقاً حشوناه بكعكة الفاكهة، والكعكة المُضلّعة، وبشريحة من فطيرة مرينغ الليمون الباردة.

إذا كان هناك وجود لِما يُسمّى بمولد غريزة الأم فقد اكتشفته في ذلك اليوم من خلال رغبتي في أنْ أفعل كلّ شيء لأجله، حتى لقد حلمتُ بأني أغسل له قدمّيه. وتذكّرتُ مريم، مريم المجدلية ومرهمها العطِر، تذكّرتُ شَعرها الطويل الباهت. كان ينوي المغادرة قريباً مع الإرساليات الأجنبية، وخلال الصمت الذي تلا ذلك الإعلان الخطير بدا كأنَّ البريق كله زال عن تلك الأمسية، والنور الذي كان قبل ذلك بلحظة يرقص على الحجر المصقول، جاعلاً كل لمعة تتبلور وتغدو ذهباً برّاقاً كحوافّ كتابٍ قدّاسه، قد خبا، تلاشى. لن نراه بعد ذلك، ولن نعرف، لن نعرف ما الذي ينتظره في تلك القارة الأخرى بما تنطوي عليه من غموض وما تتصف به من عادات سيئة في الأكل. ومنحنا بركته قبل أنْ يُغادر. ركعنا على الحجر، جنباً إلى جنب، وأغمضنا عيوننا في انتظار يديه المُبارِكتين.

حالما غادر أصبحت أمي مفعمة بالنشاط، قالت إنَّ العمل بطيء، وهرعت لكي تُطعم الدجاج، وتُسخّن الدلاء من أجل الحَلْب، وأخذ أفراخ الدجاج التي عُمر الواحد منها يوم من موقع المصباح الذي كان بديلاً لأمها وإجلاسها على حافة الصندوق البرتقالي الكبير وتراقبها وهي تنقر القطع الصغيرة من الوجبة الهندية الرطبة. هي أيضاً شعرت بغُصّة غريبة.

Twitter: @ketab_n

4. الكُتُبُ التي قَرأنا.

مثل تلك الأشياء كانت تظهر في الكتب. على الرغم من أنه لم يكن يُتداوَل العديد من الكتب. كان هناك كتابان أو ثلاثة كتب بالية مُتداولة، تُعارُ صفحةً صفحة، دائماً تلتهما النسوة ودائماً تُناقَش. هل أحبّها؟ هل كانت تغار من المُربية؟ هل هناك لعنة نزلتْ على العزبة؟ هل شكّلت المرآة المكسورة عاملاً ذا مغزى؟ قصصٌ عن رجالٍ يرتدون بذلات الصباح، وفرارِ فتياتٍ من بيوت أهاليهن بقصد الزواج، وعباءات من الكشمير، وسيداتٍ مملوءات بحيوية صارخة يتركن وجباتهن دون أنْ يلمسنها، وماء كولونيا، وحالات إغماء، ومناديل ناعمة، وعروض للزواج، وغيرة، وقَدَرٌ لا يرحم؛ قصصٌ عن حبٍ مُحبَط لأنَّ الرجل متزوج ولا يمكن حلّه من الزواج، أو لأنَّ الرجل كان متزوجاً وشبحُ عدم البوح بلعنةِ زوجته السابقة يُلقي بظلّه على سعادة العروس؛ أو مُحبَط لأنَّ أحد الطرفَين من مذهبٍ آخر وذلك يشكّلُ عائقاً لاغياً، وهو أكبر العقبات قاطبةً!

راوية هذه القصص آنسة اسمها آني م.ب سميثون، وهي حزينة بصورة مؤلمة وتحبس الأنفاس – ممرضة تقع في حب رجل من المذهب الخطأ، ولدى عِلمها الحقيقة تختفي، وتعاني من آلام

Twitter: @ketab_n

الفراق، والشك والغواية، ولكن بعد حياةٍ طويلة، عفيفة، يُقتدى بها تجتمع به من جديد، وطبعاً يهتدي هو إلى مذهبها؛ أو مُحدَث نعمة بدين يمتلك قصراً قديماً جميلاً عليه رهنٌ يحلّه بالزواج من الرقيقة كليمانتينا رُغماً عنها. ولكن طبعاً تربكه الوكالة بالقول إنَّ القصرَ مسكونٌ وتعثُر هي على رجلِ أحلامها. ودائماً هناك «درب الآلام» الذي يوصل بصورة موجعة إلى النهاية السعيدة، وإلى ظهورِ معجزةِ الحبِّ الأبدي.

وينظر المرء في مرآة اليد ذات الخلفية من العظامَ إما قبل، أو أثناء أو بعد واحدة من النوبات العنيفة تلك ليتأكَّد ما إذا كان قد حدث تغيير عليه. أأنا جميلة؟ هل أشبه بطلة في رواية؟ هل من الحِكمة وضع ملقط غسيل على أنفي كما فعلت إيمي أو ميغ في رواية «نساء صغيرات»[67]؟ هل ينبغي أنْ أغيِّر اسمي ليُصبح ليديا؟ كان الجمال ذا أهمية قصوى. كان يُحدد مصير الفتاة، ومستقبلها ومن دونه لن يُلقي السيد الجذّاب نظرة واحدة عليها. كان على السيدة أنْ تبدو مثاليّة، أنْ تبقى صامتة فتحصل على رجلها.

عندما رأى السيد كارلايل، البطل القدوة في «إيست لِين»[68] عروس المستقبل (الضالّة) للمرة الأولى فإنه:

67- «نساء صغيرات»، من تأليف الكاتبة الأميركية لويزا ماي الكوت (1823-1888).

68- «إيست لِين»: قصة رومانسية صدرت عام 1861، من تأليف مسز هنري وود. وتحكي عن الليدي إيزابل كارلايل، زوجة المحامي المُجد في عمله والمُهمِل لها التي تفرّ من زوجها وتترك طفلها الوليد مع رجل ارستقراطي، لكنَّ هذا الأخير يتركها مع طفل غير شرعيّ، فتتنكَّر بزيّ مُربيّة وتعمل عند زوجها السابق لكي تُربي طفلها. - المترجم

Twitter: @ketab_n

«... لم يعتبر نفسه مُعجَباً بصورة خاصة بجمال المرأة، لكنَّ الظُرف الاستثنائي للشابّة الصغيرة الماثلة أمامه استولى على حواسه وعلى تمالكه لنفسه. ليس الحدود المثالية للقسمات المُرهفة مافتنه، أو الحُمرة الصارخة للخد الناعم، أو الشَعر المنهمر الوافر؛ كلا، بل التعبير العذب في العينين الداكنتين الناعستين. لم يكن قد شاهد مرةً في حياته عينين تسرّان النظر مثلهما. لم يكن يستطيع أن يكفّ عن التحديق فيهما، ومع ازدياد تآلفه مع عينيها، أصبح يعي أنّ مسحةً من الحزن تلفُّ شخصيتها. لم يكن لذلك التعبير الحزين اللا واعي وجود، لكنه كان مؤشّراً مؤكّداً على الحزن والمُعاناة؛ لكنَّ السيد كارلايل لم يفهمه. ومَنْ يستطيع أنْ يربط بين الحزن والمُستقبل المتوقّع لإيزابل فاي».

إلى آخره، ويُنسيان العشاء، أو الصلوات أو كائناً ما كان الشيء، لكي يكتشفا أنهما كانا في سعادة غامرة إلى أنْ يتمكّنَ سُمّ الغيرة من إيزابل، ويكتنفهما سوء الفهم، وتهربْ، وتتعرَّضُ لحادثٍ يقعُ لها في قطار في فرنسا يتسبّب في تشويهها وبعد مرور بضع سنوات تعود باسم مستعار لتُصبح ممرضة أطفال في منزل زوجها. كان زوجها قد تزوج من المرأة التي كانت تفار منها، فيتحطّم قلبها، وتتوجَّع، وتكشِف كل شيء عن أمرها على سرير موتها وتُتقَع مناديل العالم أجمع بالدموع.

لا شيء يمكن أنْ يكون أشدّ بُعداً عن الواقع من هذا. كانت أعلى بيضة قد برد في الكوب. كان يعلو الكاكاو زبَد، وكان هناك صوت يقول، «هل قمت بتمارينك» أو «نظّفي تلك الطاولة». في الخارج كان الظلام قد هبط. وكانت الأبقار قد حُلِبَتْ تواً، وبقيَ لك نصف شمعة يُفتَرَض بك أنْ توفّرها. فتُطفئها وتفكر أكثر، وسط الظلام، وأنت تتعذَّب، في المسكينة إيزابل وفي كل ما تحمّلته. كانت الحياة تبدو شديدة التفاهة إلى جانب هذا. الحقول، والمستنقع الذي تنمو فيه أزهار الليلك، والأبرشية التي تضمّ ألف روح، والكاهن العجوز

Twitter: @ketab_n

الذي يُلقي عظاته المُطوّلة التي تُقاطعها نوبات السعال والبلغم، ودِلاء الحليب، والأحاديث كانت كمياه الغسل بالمقارنة مع الرحيق في تلك الحكايات المنحوسة. وكانت مس آني م.ب سميثون أو مسز هنري مور أو مخلوقة فاتنة أخرى تقول إنَّ القمر يسبح عالياً في السماء، وإنه يُغطّي حقاً على ضوء النجوم، التي تبدو كأنها تنسحب لتُشكّل تكتّلات أشدّ كثافة، بينما يتقدَّم الزوج الفلاني لكي يؤديا أهمّ وأشد قصص الدراما حيوية في حياتهما.

العالمان لم يكونا يلتقيان. الواقع كان مملاً ويقع في المرتبة الثانية. والجنس الفاكهة المُحرَّمة كان الحافلة الزجاجية التي يُحلِّق فيها المرء في التفكير. وطبعاً كانت هناك حكايات أكثر جراءة تتضمن ملكات مُحاربات لا تخدعهن تلك الساعات الأولى العذبة ولكنهنّ يسعين إلى الحب المُطلَق وذلك بعد خوض الكثير من المعارك. والمرء لا يتطابق كثيراً مع تلك السيدات لأنهنّ لا يستسلمن. كانت هناك أسماء كثيرة، أسماء طنّانة مثل ديبدر وإمير وميف. أما المحبوبة فكانت ماشا ذات العُرف الأحمر، والقسمات الصارمة والمُهدِّدة، وهذه ليست آنسة رقيقة بل حمراء وكأنها كانت تستحمّ بالدم، وتتمتّع بقدرتها على السيطرة على أرواح البشر. برمحها لمستْ ملكاً نائماً، وعندما رآها نهضَ واقفاً على قدميه واتّجهت روحه بأكملها نحوها وعرض عليها حبّه وإجلاله. ثم في الغابة عندما سعى إلى عناقها قيَّدَتْ يديه كما يُقيّد الراعي قوائم الحَمَل، بعد أنْ جرَّدت شجرة صفصاف من أغصانها الغضّة والليّنة. وتتركه هكذا وتفعل الأمر نفسه مع التالي ثم التالي إلى أنْ يأتي الرجل المناسب يقبض عليها بيديه القويَّتين فتتحوَّل إلى حسناء نضرة وتستجيب إلى حبّه وتصبح

Twitter: @ketab_n

عروسه.

وتشعر الفتاة منا كأنها هي التي ترتدي الخِمار الأبيض.

فوق الموقد الأسود صلاة صغيرة مؤطّرة كانت تترنح إلى الأمام والخلف في تيار الهواء القادم من المدخنة:

فلتُبَّل الوجبات التي أُعدها

من الأعالي

ببر كاتك ونعمتك

وقبل كل شيء بحبّك.

كانت الوجبات تتألّف من البطاطا المسحوقة التي تُسمّى باندي[69]، أو خبز البطاطا أو بوكستي، وتوليفة من البطاطا، والبصل والملفوف تُسمّى كولكانون. وأكلها كان بمثابة الكفّارة. كذلك الأمر مع أكل أي شيء عادي. وكان هناك العلّيق المتلألئ على سياج الشجيرات لكنَّ الكرز المُثلَّج كان نفيساً كالحجر الكريم. وكان هناك كعكة البورتر أو كعكة دبس السكّر التي يوجّه المرء أنفه نحوها، أما كعكة المحل، كالسويس رول على سبيل المثال، التفهة مثل ورق الأرز، فتنتمي إلى عالم آخر حيث تقفُ البطلات عند النوافذ لاستقبال آخر خيوط أشعةً الشمس، وتصطبغُ وجوههن بحُمرةٍ قانية بلون قبّة السماء القرمزية.

كان الناسُ يأتون، لا تتطابقُ أوصافهم تماماً مع تلك المعايير

[69] باندي: الكلمة تعني حرفياً العقاب بالضرب على الأيدي بالعصا أو بالحزام، كما يحدث مع طلاب المدارس..– المترجم

Twitter: @ketab_n

الفخمة، ولكن بأصوات مختلفة، متأنّقون ببناطيل قصيرة[70]، مع سيارات رياضيّة، وذات مرة جاءت سيدة مع منديل من الحرير المُنقَّط خيطت في منتصفها قطيفة للبودرة من الريش. جلبتْ معها لزقات صغيرة لعلاج مسامير الأقدام وهذه أيضاً كانت مُزخرفة بصورة رائعة. كان الجزء المركزي من المسمار يُنزَع باللزقة الصغيرة أمام إعجاب الجميع. كان الرجال يُخاطبونها ببيتي، ويصفعونها على مؤخّرتها وأُشيعَ أنها لم تكن زوجة أي منهم، على الرغم من أنها كانت تبيت في منزلهم العائم. كانوا يصطادون السمك طوال النهار، مُستخدمين ذبابة أيار كطُعم، ويتناولون غداء النزهات، ويصطادون سمك التروت أو يفشلون في ذلك، ويحملون صيدهم إلى البلدة في المساء إلى الفندق، حيث يكون الميزان دائماً جاهزاً لوزن السمك. ثم في الليل يجلسون في صالون الفندق ويشربون الويسكي، ويطلبون من السكان المحليين أنْ يعزفوا لهم على الكمان. الأحرف الصوتيّة التي ينطقونها لم تكن تبدو كأحرف صوتيّة على الإطلاق، لكنها تُخمَد تماماً. وكانوا يُخاطبون الجميع ببادي ويحكون قصصاً قذرة.

ذات أسبوع، اجتمعت فرقٌ من الناس لكي يذهبوا إلى ليمريك لمشاهدة فيلم «لمَنْ تُقرع الأجراس»[71]. كان الفيلم يستدرّ الدموع. كان اسم دار العرض «ستيلا» على اسم نجم هادٍ، ومُلحقاً بها مطعم شاسع مكسوّ بالسجاد يُقدّمون فيه حساءً الدجاج مع التوابل الهندية، والسجق مع البازلا، والكعك المُثلّج المُسمّى باسم مدينة

---

[70] المقصود هنا بنطلون قصير خاص يرتديه الرجال عندما يلعبون الغولف، ويُربط تحت الركبة. - المترجم

[71] «لمن تُقرع الأجراس»: رواية الكاتب الأميركي المعروف إرنست هيمنغواي.

Twitter: @ketab_n

تورونتو. أهمل الفيلم المغزى التاريخي أو السياسي، أو لم يُحط به، لأنَّ ما حدث – كما قيل – هو أنَّ إنفريد برغمَنْ أحبَّتْ غاري كوبر وكانت حاملاً بطفل وأُصيبَ هو برصاصة غادرة. كانت رواية إرنست هيمنغواي تدور حول شخصية إنفريد برغمَنْ، ويطلب منها رجل العصابات غاري كوبر، وهو يترنّح في سيره على الممر المرتفع متأثّراً بالطلق الناري، أنْ تواصل حياتها. كان الناس يُلخّصون القصة، ولكنَّ دائماً بتفاصيل مختلفة.

ولكن في دبلن كان مائتا شاب قد انطلقوا بقمصان زُرق تحت حماية الجنرال أودوفي للقتال إلى جانب فرانكو في إسبانيا، ولكن هذا لا صلة له البتّة برواية إرنست هيمنغواي الكئيبة. فالقرية كانت مُنقسمة بصورة حادّة بين أولئك الذين صوّتوا لصالح حزب كوسغريف والذين كانوا إلى جانب ديف. كان دو فاليرا هو البطل المهيب. وكانت عبارة «يعيش ديف» شائعة. كانت مناسبة جداً وهي مكتوبة على الجدران الحجرية، أو على خلفيّة ممر النزهات، أو حتى على الطريق نفسها قبل وصول زواره القليلين. كان ديف رجلاً ورعاً يذهب لحضور القداس والقربان المُقدَّس في كل يوم، بالإضافة إلى قضاء ساعات أخرى للتعبُّد في المُصلّى في شارع ليسون، ليُراجع ضميره دون ريب. وعندما جاء ديف ووقفَ على سيارة النقل الكبيرة كان يرتدي معطفاً أسود طويلاً كمعطف الكاهن. كان صارماً، خلافاً لبادي هوغان، وزير الزراعة السابق، الذي كان فطناً وراوية. قاطعه أحدهم، ووجّه إليه سؤالاً مباشراً، «كم إصبعاً في قائم الخنزير، سيدي الوزير؟»، فقال بادي هوغان، «اخلع حذاءك وعدّها». وصفَّق الجميع، حتى الذين لا يعتبرون بادي هوغان المفضَّل لديهم. وكانت الحرب الاقتصادية قد بدأتْ قبل ذلك بوقتٍ طويل، عندما تُركتْ الحيوانات لتنفق في الحقول، ووقعت

Twitter: @ketab_n

كارثة مُشابهة تقريباً عندما استوطنَ مرض الحمّى القُلاعيّة، واعتقد البعض أنَّ عملاء بريطانيين بثّوا الجرثومة في حظائر التبن ليلاً.

كان هناك رجل إنكليزي اشترى بيتاً كبيراً قريب من ضفة النهر، منزلاً جميلاً من الحجارة المصقولة المُدبَّبة ويحتوي على نباتات زينة، وسناجب حُمر، وبوم، وأجراس كهربائية ومضخّات. فقام بهدمه، وباع الحجر، ورفوف المدافئ الرخامية، لمجلس المقاطعة بخسارة! ونما الشوك حول المراسي المكسورة واستوطنت طيور الغداف الأشجار العتيقة التي نسيَ أنّ يقطعها.

كان هناك مُبشِّر جاء وتكلَّمَ بحماسة أشدّ، وفي الوقت نفسه بنبرة صوت أكثر تجريماً، عن الروح السرمديّة، وفي تلك الأمسيات كانت لوحة الجحيم، وغرف جهنم التي تتلظّى باللهب الأحمر وتعجّ بشياطينها المرحة، تبرز بوضوح أشدّ في مُصلّى موحش، رطب، ينضح بالعرق ومزدحم، مما لوَ أنَّ هيرونيموس بوش[72] نفسه نفّذها، وكان يرسم المشهد الجحيمي وينتقي الناس، أو نفسه، أو والديه، أو أصدقاءه ويرمي بهم إلى أحشاء ذلك الجحيم.

كانت هناك أربع عشرة محطة للصليب تبيِّن الدرب إلى الجلجلة، تحتل الجدارَين الرئيسين، لوحات حيّة كأوعية دماء الخنازير التي يصنعون منها السجق. كانت النسوة تحشين الدم داخل الأوعية الصغيرة عديمة اللون، وتربطنها من كلا الطرفَين ومن ثم تطبخنها على نارٍ هادئة على مدى أربع ساعات، وتُقدّمنها كإفطار، في يوم الأحد التالي، أو في يوم العطلة الديني التالي، أو في

---

[72] هيرونيموس بوش (1450- 1516): رسّام هولندي، عُرِفَ بلوحاته الملحمية الرهيبة المُستمدة مواضيعها من الكتاب المقدّس. - المترجم

Twitter: @ketab_n

تلميذة:

آه، اسمعني، أيها المسيح

الطاهر، لا تحرمني

أبداً

آه أيها المسيح، من عذوبتك.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

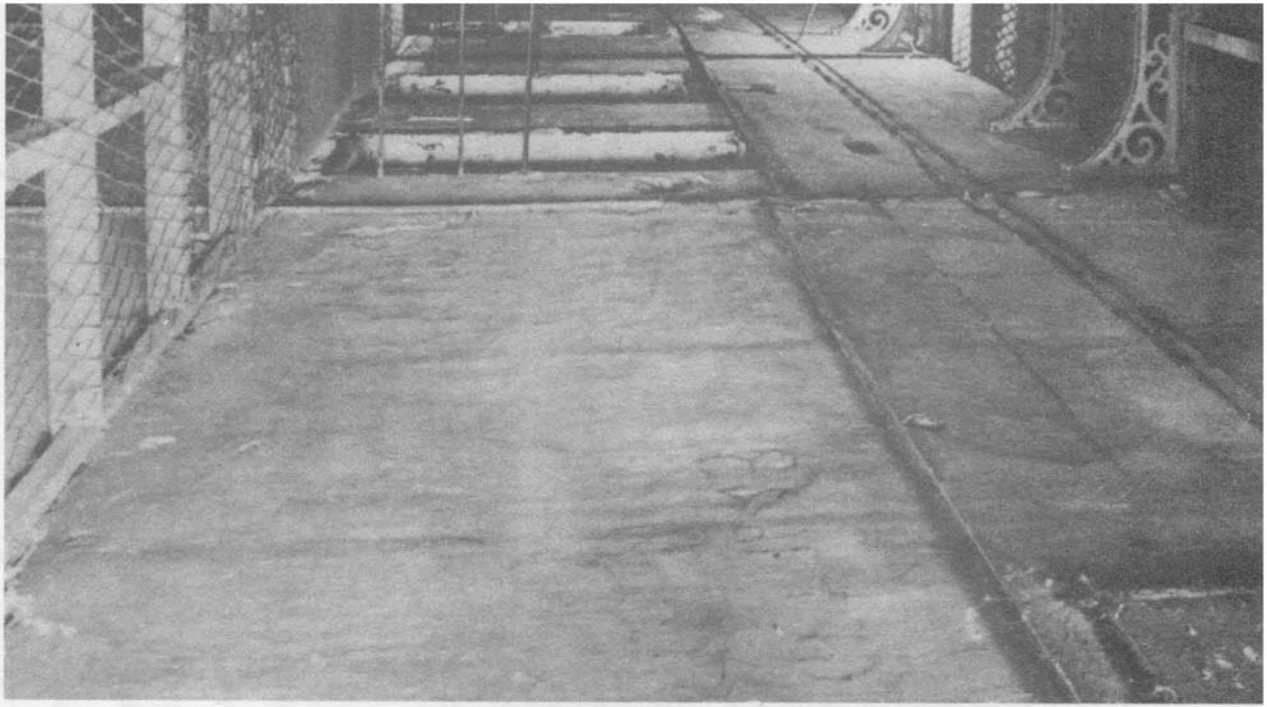

سجن كيلمينهام:

سجن كيلمينهام، أو «باستيل أوروبا». رحّبَ الحرس بنا ترحيباً شديداً ومُطوّلاً قائلين إنه لكي نستحسنه ينبغي ألا ننظر إليه كركام من الحجارة، بل كرمزٍ وكتذكارٍ للقسوة التي مورستْ على بلدنا الصغير على أيدي عدوٍ غريب. والزوار الذين يأتون لمشاهدته يتضمّنون بعضاً من أعدائنا الغرباء، والأميركيين، والسكان المحليّين الذين يمكن تمييزهم فوراً لأنهم يتجمّعون معاً كأشكالٍ من الغضار. الغرف باردة، مُبلّطة بالحصى ومُملّطة، وتحمل أسماء أشهر نزلائها. كان من الصعب تمييز كتابة خط بارنل في رسالته إلى كيتي أوشيا، قائلاً إنه يتلقّى معاملة حسنة، وتصله الكثير من أشعة الشمس في الصباح ويُنمّي مهارته في لعبة كرة اليد.

Twitter: @ketab_n

أولاد متهرّبون من المدرسة:

علّ هذان الطفلان لا يزالان بطلي أقصوصة جيمس جويس «اللقاء»: الصبيّان اللذان يلتقيان بعد الخروج من المدرسة ليُحاكيا معارك الغرب الأميركي. فذات مرة يتهرّب اثنان منهما من المدرسة ويهربان إلى داخل المقاطعة حيث يُقابلان متشرّد، «عجوز أحمق غريب الأطوار»، يصِفُ لهما بصورة مُثيرة للاشمئزاز كيف سيضرب الأولاد الذين لهم عشيقات بالسوط، بشكلٍ لم يشهده العالم من قبل.

Twitter: @ketab_n

رجال مقاطعة كيري:

يقول رجال مقاطعة كيري إنهم أصلب رجال أيرلندا ومتفوقون في خدمة النساء، ولكن كذلك الأمر مع رجال مقاطعة كورك، ورجال مقاطعة كلير، ورجال مقاطعة روسكومون، ورجال مقاطعة مايو ورجال أيرلندا كلها – أولئك الذين جعلهم الله مجانين، لأن حروبهم كلها مرحة وأغانيهم كلها حزينة.

Twitter: @ketab_n

الرجل الذي يحمل موسيقى داخله:

وفي كيلكيني قيل

إنني على قبور من الرخام

سوداء كالحبر موشّاة

بالذهبِ والفضّة

دعمتُها

ولن أعزف أكثر حتى أحصل على مشروب.

Twitter: @ketab_n

ثمالة:

«سيداتي وسادتي، سواء أكان الجو حاراً أم بارداً، سيّان، فشخصٌ يشرب ليتبرَّد، وآخر يشرب ليستدفئ، وفي النهاية الجو شديد البرودة. أولاً شربتُ بثمن ملابسي المرهونة، ثم شربت بثمن عباءة زوجتي، ثم شربتُ بثمن تنّورتها الفانيلا، ثم شربتُ بثمن الأكواب والصحاف التي في الدولاب، ثم شربتُ بثمن الأطباق بأنواعها التي في الخزانة، ثم شربتُ بثمن القِدر والإبريق الذي على النار، ثم شربتُ بثمن مفارش السرير، ثم بثمن السرير الذي أُخِذَ من تحتي وتحت زوجتي، إلى أن لم يبقَ شيء لم يتحول إلى أبازيق من البورتر، وكؤوسٍ من الويسكي وأوعية من البنش[1]! وما أعادني إلى صوابي كان الأرض الباردة، والأطفال المساكين وهم يصرخون «بابا، بابا، نحن جياع» (رجل يأخذ عهداً على نفسه بالانقطاع عن شرب الخمر).

1- البنش: شراب مُسكِر مؤلَّف من كحول وعصير ليمون وتوابل وشاي وماء.

Twitter: @ketab_n

هذا الرجل لطالما كتب عنه مايلز ناغوباليان: عينان دامعتان، بارز تان باضطراب من محجريهما، نحو الجمهور، ويقبض على الطاولة ليتحكّم بنوبات الهذيان، وينادي طلباً لكرة من الملت وماء، ويُريق الماء، ويعبّ المشروب بينما أسنانه الاصطناعية ترتطم بالقدح، وينكمش على نفسه وإذا بمتحذلق ويا للعجب! ينكبُّ عليه ويباشِر خطبة مُطوّلة حول مضارّ التدخين.

Twitter: @ketab_n

المناسبة الخاصة التالية.

المناسبات الخاصة كانت دُرر الحياة. يأتي زوّار بلا مناسبة – أناسٌ حتى أمك لا تكاد تتذكّرهم. كانوا في المعتاد يأتون من الولايات المتحدة ويجلبون معهم عقوداً من الخرز وحُلياً رخيصة ويتباهون بمنازلهم.

كانوا يتفرّجون على غرف النوم ثم المراحيض الخارجية، وعنابر التبن، وزرائب البقر أو المعالف، وخن الدجاج؛ ثم يعودون لشرب الشاي وتناول الكعك المدوَّر والخبز الأسمر وكعك الملكة والكعكة الإسفنجية والكعكة المُضلّعة وكعكة الفاكهة التي تُسمّى في كتاب الطبخ كعكة الخوخ. كانوا يتحدثون عن المحاصيل، ونقص السماد الصناعي، وينطلق والدي، من باب ملء فترات الصمت، في الغناء عن «حسناء النعجة السمراء الجميلة». ونتيجة لتلك الروح المرحة تطلب منه أمي أنْ يُغني الأغنية التي تحكي عن مباراة «الحسناوات»[73] ويُناور والدي، وأخيراً يحكي كيف أحضر تيدي البروتستانتي ذا الرعشة إلى المقاطعة المجاورة لكي «يتفحّص»[74] ثلاث فتيات وينتقي منهن عروس المستقبل. وحالما وصلا إلى المكان وجدا نفسيهما أمام ثلاث فتيات في أبهى حللهن، بأكمام منتفخة، وقلادات وما إلى ذلك. ثم يسكت لكي يرى مدى استغراق الزوار في الحكاية، وهكذا يكونون فعلاً. ويحكي كيف اختار تيدي واحدة منهن، وكيف أُرسِلا إلى الخارج لكي يتمشيان في فناء المنزل، ليتعارفا، وكيف أعلنَ في تلك الأثناء عن أنَّ المائدة المفتوحة قد

---

[73] لفظتها لفظاً خاطئاً.

[74] يفحص: الكلمة المُستخدمة بالإنكليزية تخص فحص الحيوانات. – المترجم

Twitter: @ketab_n

أضحت جاهزة، وكانت تحتوي لحوماً باردة، ومخللات، والشمندر، وسلطات البطاطا وشتى أنواع المربّى. واستُدعي العاشقان وألقى تيدي – الذي كان قد شرب تواً كأساً من الشيري – نظرةً على إحدى الابنتَين الأخريين، وقال بتردُّد، «لقد غيَّرتُ رأيي، أعتقد أني أفضَّل أنْ أحصل على هذه». فضحك الجميع. قالت أمي إنَّ والدي مُضحك جداً، فيسأل أحد الزوار مَنْ التي تزوّجها تيدي فيكون الجواب «ولا واحدة». وقد يختم والدي بالقول أنَّ تيدي كان «مخلوقاً لطيفاً». وقد مات تيدي في منزله، ولم يُعثَر عليه إلا بعد يومَين. ويُظهرون بعض الرثاء على هذه الميتة وعلى كل الميتات المُبكّرة، ويحين وقتُ شربِ الكوب التالي من الشاي، ووقتُ حملِ مُكعبات السُّكّر الأبيض الناصع بين طرفَي الملقط الصغير وإبداء ملاحظة حول كم كان مُقدّساً.

بعد تناول المرطبات يخرج الرجال ليُلقوا نظرة على الحيوانات ويتناقشون حول ما يمكن لهذه أنْ تجلب في السوق التالي. وكان يُقام سوق للخنازير مرة كل شهر، وسوق للماشية في اليوم التالي، وفي الشوارع الرئيسية تُحجز صِغار الخنازير في أقفاص حيث تزعق دون توقّف، بينما الماشية تسرح وتمرح وتتسلّل إلى كل مكان. ويشرب المزارعون كميات كمية من الخمر ويبصقون في أيديهم وهم يُنجزون الصفقات، وأحياناً يمسحون الزَبَد عن شواربهم بأكمام معاطفهم الصوفية الغليظة. وعند الفسق يجمعون الماشية التي لم تُبَع ويُعيدونها من جديد إلى حظائرها وإلى زوجاتهم الساخطات.

كانت الأسواق شيئاً فظاً وعلى مدى أيام تبقى رائحة الروث عالقة في البلدة وفي الدكاكين. والحدث المُثير ربما كان وصول فرقة التمثيل والإعلان عنها بالمُلصقات التي توضع على واجهات الدكاكين، أو على الجدران الحجرية وتُثبَّت بحجر أو اثنين. ومنها كنا نعلم إنْ

Twitter: @ketab_n

كان السيد أنيو ماكماستر قد جلب شكسبير أو أنَّ ممثلين جوّالين جلبوا أشياء أشدّ صبيانيّة. كان السيد ماكماستر يتفوّق في مناجاة الذات ومشاهدته وهو يتمشّى متباهياً بردائه الروماني الفضفاض تجعل المرء يتخيَّل أنه في روما أثناء عصر قيصر ومارك أنتوني. كم كان يهدر. لم تكن ترى سيدات من العامة جالسات في الصف الأمامي، على الرغم من أنهنّ كنّ في المعتاد يشتهين الجلوس على تلك المقاعد، لأنَّ السيد ماكماستر في خضم اندماجه يلوّث وجوههن وصدريات ستراتهن بالبصاق ويخرجن وهنّ يعبرن عن دهشتهن لأنهنّ تبلّلن.

كان شكسبير مُتكبّراً، متكبّراً أكثر مما ينبغي، أما الروايات الميلودرامية فهي التي كانت تؤثّر في المشاهدين وتستدر دموعهم وتنتزع ارتعاشهم على التوالي. وكان الكونت دراكولا يدفع ملء قاعة من الرجال، والنساء والأطفال إلى حبس أنفاسهم. كانوا يتوافدون حشوداً ليُشاهدوا كيف سيغرز دراكولا الدبابيس في نحر الفتاة لفتح الأوردة ومصّ الدم الصافي. وغالباً ما كان الناس بعد مشاهدته يخافون الذهاب إلى منازلهم ويُضطرون إلى أخذ وسيلة نقل، لكنهم كانوا يحسبون حساب النقود من أجل عرض الليلة التالية.

قبل بدء العرض المطلوب يقف الممثلون الأوائل عند الباب، يمنحون البطاقات، ولكن لا يمكن بلوغهم مُطلقاً بسبب تحفّظهم، ومساحيقهم، ورموش عيونهم القشرية، وستراتهم الفضفاضة المُزيّنة بالترتر، وقمصانهم ذات الكشكش، وفوق ذلك كله، أصواتهم الحلقيّة الجميلة. كانت أوجه شخصياتهم كلها تظهر مثاليّة تحت الوهج الحزين لمصباحَيّ بارافين استُعملا لإضاءة خشبة المسرح. قد تندلع النار في الستائر ولكن مَنْ يأبه! «كل شيء لهيكوبا وهيكوبا

Twitter: @ketab_n

لي»، كما أُشيعَ أنَّ أحد الممثلين قال في صباح أحد الأيام بعد أنْ قُدِّمتْ إليه بيضة في داخلها صوص، على مائدة الإفطار! في مجلس البلدة كان الرجال، والنساء، والأطفال يبكون، وينوحون، وتسيل أنوفهم، ويبتلعون دموعهم عند تقديم المشهد الأخير من مسرحية «إيست لين» كما كانوا قد بكوا قبل ذلك بساعة عندما مات صبي، اسمه ويلي الصغير، على خشبة المسرح وترك وراءه أماً مجنونة وكسيرة القلب.

عندما يصدر الحنان عن الممثلين كان يعني شيئاً آخر، لكنه يفقَدُ تماماً عندما يطلب رجلٌ من زوجته أنْ تخرس أو تنزع امرأة أسنانها كلها في الغرفة الجانبية في الفندق، الذي يحلّ فيه طبيب أسنان مُتنقِّل مرةً كل أسبوعَين، كان معروفاً عنه قسوته وبراعته الفائقة في استخدام الكُلّاب. كان الأمر مختلفاً على خشبة المسرح، عندما وجد الكاوبوي في قصة «جنوب الحدود» أنَّ حبيبته الضائعة قد نذرت نفسها للرهبنة، ورآها جالسة على مقعدها الصغير وسط بركة من النور السماوي. حينئذٍ كان البكاء مُباحاً وبكى الجميع، بمَنْ فيهم الممثلون أنفسهم. كانوا معروفين بالسهر حتى ساعات متأخّرة، وبالشجار، والنساء – اللائي كنَّ مشوّشات بسبب العناية بالأطفال والطبخ في منازل مؤلّفة من غرفة واحدة – لم يكنّ يخرجن أبداً، إلى أنْ ظهرنَ كبطلات، وتبدّلن.

قرعتُ باب زوج منهم وأتذكّر بكل وضوح، بوضوح فائق، الداخل – أطفال يبكون، ما يُشبه الوجبة يتم إعدادها، والممثل بقميصه ذي الكُمّين القصيرَين، ينظر إليّ بتعبير وجه شديد الذهول، والغضب، قائلاً «انصرفي في الحال»، ثم أتبعها بـ «كيف دخلت إلى هنا؟». كنتُ قد ارتقيتُ الدَرَج الخلفي وكان سعيداً بإخباري بأنه ليست هناك

Twitter: @ketab_n

شواغر للممثلين، والممثلات، والممثلين البديلين، ومستلمي البطاقات ولكنّ هل لي أنّ أتلطّف وأطلب من صاحبة المنزل في الطابق السفلي أنْ تُرسل إبريقاً من الحليب وكأساً من البورتر لكي يتمكنوا من تناول غداءهم اللعين. ولكنّ في ليلة ذلك اليوم كان هو دراكولا المسوس، ولم تترك الغرفة المُظلمة والمرأة الشاحبة ذات معقصات الشَعر المعدنية، والأطفال الزاعقين، أي أثر مهما كان.

وُصِفَتْ رواية «الجامعيون» بأنها قصة «حب وجريمة قتل». بالنسبة إلينا كانت قصة آيلي أوكونر، زهرة غاريوين، التي انتزعها هاردريس، الجامعيّ الذكي، من منزل والدها. ولكلّ فصل عنوانه المُغري الخاص. «حدائق مسرّات غاريوين»، «كيف ارتقى كيرل دالي إلى التودُّد...»، «كيف أربكَت آيلي أوكونر سكان غاريوين كلهم...»، «كيف افترق الصديقان...»، «كيف استمر إغواء هاردريس»، إلى آخره. وليلة غادرت آيلي المنزل، وكانت متزوجة سراً، وضعت عباءتها الزرقاء على كتفيها ومشت قُدُماً «ولكن ليس قبل أنْ يجثم الحزن على قلبها كصخرة سوداء». ومنذ ذلك الحين فصاعداً أصبحت قضية خداع، وتجاهُل، وفراق وأخيراً سقوط. وفي ليلتهما الأولى، وهما يحتميان في منزل أحد الأصدقاء بسبب هبوب عاصفة، كان لابد لآيلي أنْ تنتحل شخصية أخت إحدى الخادمات، أنْ تُخفي وجهها، وتجلس في الطابق العُلوي في غرفة صغيرة أثناء وجود زوجها في الطابق السفلي يتناول طعام العشاء ويُناقش أخلاقيات الحياة، مع صديقه ومنافسه كيرل دالي. وبعثت إليه أيلي رسالة تتوسل فيها إليه أنْ يصعد إليها:

«الفتاة الجميلة التي استُخدِمَتْ في تلك اللحظة لتصفف لها شعرها وتجفّفه شعرتْ بأنّ وجيب قلبها قد أضحى أسرع قليلاً وأوضح في سماعه. أبعدتْ عن صدغيها الكتل المتموجة من الشعر الذهبي المتدلية حولهما، وهرعت إلى

Twitter: @ketab_n

الباب منفرجة الشفتين وبوجنتين متوردتين من اللهفة. وهتفت لنفسها وهي تحل الحزام» إنه هو. «لكنه لم يكن هو. أول ما قابل عينيها كان الوجه النمِش المشوَّه لأحدبٍ قميء».

كان الأحدب نفسه الذي كان هاردريس قد أصدر إليه الأمر بالتخلُّص منها، «ويرميها إلى الجدول» لكي يجرفها معه. كان قد ملّها وقرَّرَ أنْ يتمّ العثور عليها ميتة. لكنَّ شبحها انتقمَ من روحه.

قال ثاكراي إنَّ كل حكاية أيرلندية تترك في نفسه نوعاً من الانطباع الرقيق الحزين. وكان بذلك يُشير خاصةً إلى «قلعة راكرنت»، رواية ماريا إدجّوورث التي تدور أحداثها في قلعة من القرن التاسع عشر في لونغفورد ومالكيها المتهتّكين. كانت الحياة بالنسبة إلى العديد من مُرافقي السيدات بذخاً في الإنفاق، وديوناً ضخمة، بما أنَّ كل مالك كان يعيشُ ليومه. كانت أيامهم تُبدَّد بصيد الطرائد، والرماية، والسباب، والمبارزة وشرب الخمر المتواصل. المالك الأول، سير باتريك، مات من نوبة أثناء الشرب؛ ثم سير مرتاغ قطع أحد شرايينه أثناء تشاجره مع زوجته بسبب المال؛ وسير كيت، الأشدّ فاقة، اضطرَّ إلى الزواج من يهودية مُعاقة لكي تُسدِّد له ديونه من المقامرة. لكنها كانت ماكرة، ورفضتْ أنْ تسلّمه مهرها المؤلَّف من آلاف الأحجار الكريمة التي كانت ترتدي. وعقاباً لها أوصد عليها باب إحدى الغرف الكبيرة الرطبة حيث أمضتْ وقتها في تأمُّل مجوهراتها وأكل لحم الخنزير الذي كان يُرسله إليها من باب الاحتقار. وبعد مرور سبعة أعوام جاءتها النجدة عندما عاد زوجها، بعد مبارزة بسبب عشيقته، محمولاً على عربة جرّ. ثم جاء سير كوندي الذي لا يقلّ ضعفاً وانغماساً في حياة السخاء. امتلك أحصنة جديدة وعربات خيل، وأقام مسرحاً في الثكنة، وأغدق زوجته بالحجارة الكريمة وأقام حفلات مُبهرة إلى أنْ عُزِلَ وأودِعَ نُزُل

Twitter: @ketab_n

الضيوف غيت- لودج. وقد توفي متأثراً بشرب ملء قرن من الويسكي لكي يربح رهاناً يُعطي خصمه بضعة جنيهات ولا يحصل هو إلا على ستة بنسات. ومات وهو يهذي.

على أي حال كان شرب الخمر هو الرياضة الوطنية وكان الرجال دائماً يتعثرون في سيرهم وهم يدخلون من الأبواب أو يستندون إلى جدار ليستريحوا أو يلجؤون إلى الحانة يُغنون ويطلبون المزيد من المشروب. وفي القداس عندما كان الكاهن يشرب النبيذ في كأس القربان الذهبية كان الشبّان يحبسون أنفاسهم ويتمنون أنْ ينتهي القدّاس لكي يعودوا إلى الشارع. وأحد طلاب الطب عاد إلى منزله وهو سكران طينة، وسقط مرات عدة أثناء ارتقائه الدَرَج، وتظاهر بأنه في الحقيقة يمثّلُ مشهدَ ارتقاء الجلجلة وعندما رأى أمه المتضرّعة، هتف قائلاً «يسوع يُقابل أمه المُبتلاة». فضحك الرجال على هذا لكنَّ النساء قلن «يا سلام». لم تكن النساء يشربن وإذا فعلن يشربن البورتر عند السهر على جثة الميت، المُخفَّف كثيراً بشراب منبِّه لكي يكون مظهره ومذاقه معاً غير مؤذيين. وعاد رجلٌ إلى بيته من الحانة ذات يوم أحد، وطلب عشاءه وعندما أخبرته زوجته عن مكانه شهر سكينَ الحفر عليها وذبحها من المرفق إلى الرسغ. فالرجال تحت تأثير السُكر يمكن أنْ يفعلوا أي شيء حتى بعض أفراد الشرطة لهم زلاّتهم، وِفقاً للمُراقِب أثناء إحدى زياراته السنوية ولكن غير المُعلنَة:

«زيارة للمحطة كجزء من جولة بين الفرق العسكرية. الرقيب م. لينون 231 وحضور حفل في المحطة. عندما وصلتُ إلى المحطة جلس الرقيب وهو يُحدّق إليّ ورفضَ أن يستجلب انتباه الحفل. ففعلتُ ذلك بنفسي وحاول الشرطي أونيل أن ينهض لكنه وقع في الموقد. فطلبتُ من الرقيب أن

Twitter: @ketab_n

يُعلل حالة الأوضاع في المحطة فأجاب بأسلوبٍ يُنصف أسوأ فتى بين مُشرّدي لندن. قمتُ بتفتيش الثكنة ووجدتُ أنّ مصادرة الويسكي المُهرَّب قد تمَّ في اليوم السابق وتمَّ استهلاكه في حفل المحطة. جلست خادمة الثكنة حاملة هراوة، لتحمي ما تبقى منه ورفضت أن تتزحزح من مكانها. ووضعت يدها أيضاً على سجلات المحطة ورفضتْ أن تسلّمها لي أو تسمح لي بقراءتها أو تفحّصها. وأثناء تفتيشي للمحطة وجدتُ أنّ المراحاض مملوء بسجلات المحطة، من الواضح أنّ حضور حفل المحطة استعملوها عندما استخدموه. وسمعتُ ضجيجاً صادراً عن الزنزانة فذهبتُ لأستطلع الأمر. وجدتُ هناك ثلاث سيدات شابات أخذتُ منهم إفادات. فاشتكين من أنه أثناء مرورهن بالثكنة أخذهن الرقيب لينون مع الشرطيين أوتول وبيرك عُنوة لأهداف الأفضل تخيُّلها بدل وصفها. وفي مطبخ المحطة وجدتُ الشرطي بيرك. فقبضَ عليّ من سترتي ورفض أن يتركني قبل أن أعده بسداد غرامة مقدارها خمسة جنيهات مفروضة عليه ومحو السجلات المذكورة آنفاً. وعندما رجعتُ إلى مقدّمة الثكنة وجدتُ الرقيب يتبوَّل نحو الشارع من أمام الباب. وبدأ يتشاجر معي على المشي، وأعضاؤه الخاصة مكشوفة، وكل مقطع لفظي كان يُرقّم بدفق من البول على الطريق. ولدى مغادرتي المحطة اقترب مني تاجر محلي وطلبَ أن أدفع أصحاب الحفل إلى تسديد جزء من ديونهم على مدى العام السابق والتي أضحت الآن سبعين جنيهاً. الوضع برمّته في كوروفين كان مُشيناً. عدتُ إلى توام وعمدتُ في الحال إلى إلغاء حفل المحطة برمّته. وآمل أن يكفل ضابط الفرقة أن يُسدّد أولئك الرجال ديونهم المحلية قبل أن يُطردوا من الخدمة».

Twitter: @ketab_n

5. دير.

لا توجد مثل هذه الممارسة الهمجيّة في حرم مُحيط الدير. كان يبعد أربعون ميلاً ويقع على ضفة بحيرة، يُقال إنَّ مدينة سابقة مبدأها المتعة غاصتْ فيها واندثرتْ. كانت البلدة كئيبة وقذرة نوعاً ما وبدا أنَّ الزمن يمضي بطيئاً وخالياً من الأحداث. واجتياز البوابة ومن ثم سماع المشبك يُغلَق على يد الحارس الأحدب كان معناه اتّخاذ خطوة قد لا يتمكّن المرء من التراجع عنها على مدى خمس سنوات طوال. ويتلكّأ الوالدان في قاعة الاستقبال وهما يتحدثان مع إحدى الراهبات ويتم تبادل بعض عبارات المُجاملة التقليدية. ومن ثم يتم تسليمك، وتطلب منك الراهبة أنْ تكف عن البكاء بفظاظة تُلغي التفاؤل.

من الآن فصاعداً ليس هناك غير مساحات شاسعة – قاعة استجمام، غرف للدرس وقاعة الطعام، وقواعد لكل شيء ومُلصقات تحمل أسماء على متعلّقاتك كلها. والمهرب الوحيد يأتي عند الفجر في صباح ثلاثة أيام في الأسبوع عندما نحضر القدّاس في الكنيسة الأوغسطيّة وهناك يمكن للمرء أنْ يلمح «كاهناً مُبهراً»، نائياً عنا بملابسه الجميلة ولغته اللاتينية الغامضة. وفيما عدا ذلك كان عالَماً من النساء – راهبات، وراهبات علمانيات ومرشّحات صغيرات

Twitter: @ketab_n

لولوج عالم الرهبنة ودائماً ترى خُمُراً وأغطية رؤوس نسائية مُنشّاة تؤطّر الوجه تطل منها عيون وأنوف كأنما من جُحر. ورؤية حاجب راهبة كان أمراً خبيثاً وفاتناً كما شَعرَ كيتس عندما شاهد اليد المُجرّدة من قفّازها لامرأةٍ أحبّها أثناء عبورها جسر فوكسهول.

كانت الآثام تُرتَكَب في كل ساعة، آثام التفكير، والقول، والعمل والإغفال، وإثم الأكل، ولا لالتهام تورتة الهلام المحظورة المسروقة من المطبخ، وإثم الابتسام لراهبة وضمر «أفكارٍ» شريرة عنها كلمس يدها، وإثم رش السُكّر على كف اليد ثم لعقه بشراهة، والإثم الفظيع بالوقوف أمام المرآة ومن ثم التمتمة على انعكاس الصورة لإضفاء مسحة حالمة أكثر عليها.

كان يُسمح لنا مرةً كل عام أنْ نخرج لمشاهدة العرض المحلّي ولكنْ كان يكتنف الأمر نوع من نُعاسٌ وإحباط صامتَين، فهناك الحقل الذي تحول إلى طين، والرياح (كان ذلك دائماً يتم في شهر تشرين أول عندما تنوح الرياح كما يُقال)، والرجال بمعاطفهم الضخمة، والنساء بقبعاتهن من اللبّاد، والمُهر والأفراس تصهل وتثب، وألعاب القفز على ظهر الحصان والتسالي المتقشّفة (كنا في زمن حرب) بحيث لا شيء كان يرقى إلى آمال أحد.

أحد مصادر الإزعاج في مرحلة الحياة اللاحقة هو اللا مبالاة التي عاملنا بها كبارنا في السن. ولا سبيل إلى استرداد ذلك الزمن. كان هناك زوج متوافقَان، ولا يزالان يحتفظان بالطبقة العليا من كعكة الزفاف من أجل الذرّية التي لن تأتي. كانت الزوجة بعيدة تجلس تحت مظلة مع مجموعة من السيدات، يتهامسن. أما هو فغمز لي بإحدى عينيه وقال إني نضجتُ وأصبحتُ امرأة جميلة، ثم

Twitter: @ketab_n

غمز لي بالعين الأخرى، ولا شيء آخر. وكانت هناك سيدة «غريبة» واقفة تمتصّ نسيج وشاحها، كانت أحياناً تنفجر ضاحكة وفي أحيانٍ أخرى تتَّهمُ الناس بأنهم يتسبّبون في تنسيل جوربها الناعم بخواتم خطوبتهم ذات الأحجار الكريمة. ولكن لم يكن في المكان أي حجر كريم، فقط قبعات من اللبّاد البنيّ، والبذلات الجوخ المرقّطة، والدبابيس الشبيهة حتى التطابُق بالخنافس أو العناكب، دبابيس كانت رائجة في ذلك العام. كانت السيدة الغريبة قد عادتْ تواً من لور وتتذمَّر من أنَّ الجميع يستحمون بالمياه نفسها، وكيف أنَّ تلك عادة غير صحيّة. ثم دفنت رأسها كفتاة صغيرة في ياقة معطفها الفرو، وتدثّرت بها. وقد رأيتها بعد ذلك بعشرين عاماً في مستشفى للأمراض العقلية، وطلبت مني «سيغي»(سيجارة) وكانت لعوباً كما لم تكن في ذلك اليوم فوق التل، عندما أفلتَ حصان وفرّ هارباً وساد الهياج النساء مثل أطفالهن الذين كنّ يحمينهم. كان المتأنّق غريب الأطوار يضع نظارات ثنائية العدسات أو يحمل عصا للمشي وعجوز ذو لحية سوداء يتميَّز بارتداء كاب بلون أخضر باهت.

تناولنا من المرطبات الليمونادة، وأكلنا التفاح، وبسكويتاً بنكهة القهوة مع كريما القهوة. ذلك البسكويت كان يستلزم وجود شاي ساخن من أجل أنْ تذوب الكريما قليلاً في الفم بحيث يمكن اختبار خلاصتيّ القهوة ومزجهما. لم يكن للتفاح رائحة مميَّزة في الخلاء، لكن داخل الدير وقبيل عيد جميع القديسين كانت اللفائف تتدفّق، وتُحفَظ في صالون الراهبة الصغير، وعند المرور من هناك كنتَ تراها بشكل غامض من خلف الزجاج المكسو بالجليد للباب وتتخيَّل في الوقت نفسه نفسك في أينع البساتين. هدية كل فتاة كانت تحتوي خبز البارمبراك والتفاح بالإضافة إلى أطباق لذيذة أخرى وعلى

Twitter: @ketab_n

مدى بضعة أيام اكتسب الدير رائحة أخرى وتالياً جواً آخر، وبسببه احتلت الصلاة والانضباط ومادة التلميع الشمعيّة المرتبة الثانية وأُثنيَ على التخمة.

ذات مرة عندما أُصبتُ بنزف في الأنف، مدَّدوني على الأرضيّة القرميد الحمراء ووضعوا مفاتيح كثيرة على جسمي كله، ونقلوني من ثم إلى ذلك الصالون الصغير وقالوا لي إني فتاة طيبة، ومكافأة لي قدّموا لي كأساً من الحليب الفاتر، فكرهته. وعندما هرعَتْ الراهبة إلى خارج الغرفة لتمنع أحدهم من العزف على آلة البيانو في قاعة الاستجمام، ذهبتُ إلى جوار النباتات الثلاث المزروعة في أُصص – نبتة الخروع، ونبتة كزبرة البئر[75] وزهرة بيزي-ليزي[76]، وسقيتها بالحليب الفاتر. كنتُ لا أزال أعبث بما تبقّى في أسفل الكأس عندما لمحتُ بطرف عيني مادة الحليب ترشح من أسفل الأوعية الفخارية إلى الصحاف الصغيرة التي تحملها. هل ستلاحظها؟

سألتني بقدرٍ من الحياء «هل فكّرت فيما تريدين أنْ تكوني؟». كأنها كانت تغازلني. أوه ليتني أُسعدها وأفوزُ بمكانة في قلبها القاسي وتدعوني لأقوم بأعمال صغيرة لأجلها، كحمل كتبها، أو فتح النافذة وإغلاقها أو تنظيف السبورة، أوه أوه ليتني أُصبح أمَةً لها!

قلت «راهبة»، بأسرع مما قلتُ وبلهفة أكبر مما فعلتُ مرةً في حياتي. تراقصَتْ فكرةُ النداء الباطني أمام عينيّ؛ كراية، ككلمة تتماوج ومعها رؤيا مُرشّحة صغيرة للرهبنة تضع خِماراً شفّافاً، إحدى

---

75 كزبرة البئر: نبات من السرخسيات.

76 بيزي- ليزي: نبتة صغيرة ذات أزهار برّاقة.

Twitter: @ketab_n

قدميها في العالم والأخرى تغوصُ أعمق فأعمق في ضباب الروحانية، نحو «اليوم الذي لن يُنسى أبداً» حيثُ تُقدِّم الفتاة نذورها الختامية وتنقطع تماماً عن العالم الخارجي، عن العائلة، عن المسرّات، عن الرجال، عن الحب الدنيوي، عن الحافلات والمحال التجارية والكافيتريات، عن الحياة.

قالت، منتفخة من شدة الفخر، «راهبة». في تلك الأثناء كنتُ أطفحُ بالدموع كثيفة القِوام كالفليسيرين، لكنها ليست مُغذّية كثيراً.

منذ ذلك الحين فصاعداً أصبح هناك فهمٌ مرهف لرغبتي في أنْ أصبح راهبة وهكذا أُسنِدَتْ إليّ واجبات إضافية كالسير الهوينى، والكلام بهدوء، وملازمة المُصلّى بعد رحيل الآخرين – المتنافرين، وحرمان نفسي زحام يوم الأحد، وضمّ شَعري بصرامة إلى الخلف بعيداً عن الجبين وبذلك ألغي الغُرّة أو الجمال، وشرب شاي السنّا[77] من دون إظهار أي امتعاض، والامتناع عن قراءة أي قصة حب مُبهجة في الصحيفة التي تجلبها بعض فتيات الخدمة النهارية، وعن كتابة أي رسالة إلى الوطن إلا إذا سُمِحَ لي والتركيز على أشياء مثل رؤى القديسة مارغريت ميري وإماتة الجسد التي يُمارسها القديسون.

ويبدو كأنَّ الوالدين لم يوجدا أبداً، أو بالأحرى تقلّصا حتى أصبحا إلى شخصَين أنجبا طفلاً كنَّا له مشاعر متحجّرة، تماماً كما أنَّ تلك الراهبات – بديلات الأبوين – سيتقلّصن ذات يوم ويُستبدلنَ بسلطة أخرى ومن ثم أخرى.

---

77 السنا: نبتة استوائية لها ثمار يُصنع منها دواء لشفاء أوجاع المعدة.

Twitter: @ketab_n

في ليلة يوم الأحد كانت الراهبة الرئيسة تقرأ علينا بصوت عالٍ مقطعاً من مادة أخلاقيّة، دينية أو سياسية. كنا نسمع كيف أنجزتْ القديسة بريجيت أوباكو قَدَرَها بالانضمام إلى أخيها المُحتضَر في توسكاني، لكنها لم تذهب كمسافرة عادية، بل نقلها ملاكٌ عبر البحر أثناء تناولها وجبة من الأعشاب والأسماك الصغيرة. وأُخبِرَتْ في التو واللحظة بأنَّ عليها أنْ تتخلّى عن الحياة الأرضيّة كلها وتعتكف في كهف لكي تعيش حياة صرامة وتوبة. أو تحكي لنا كيف سقطت القنابل بجوار يافا، تلك المدينة التلمودية العريقة، وكيف هشّمتْ تلك القنابل نوافذ دير الفرانسيسكان الذي بالقرب منه «أقام القديس بطرس بشكلٍ شديد الإعجاز في منزل سمعان الدبّاغ[78]». والمادة التالية قد تكون أنه عندما شعر صيادو السمك في نيوفاوندلند بأنّ أبصارهم تغشى طبخوا وأكلوا كبد سمك القدّ، أو تلك المسكينة بولندا، أخت العزيزة أيرلندا، بكت، من شدّة معاناتها من أجل الإيمان وأرض الآباء. وأنه كان هناك نقص في اللحم المُقدَّد في أنحاء أوروبا كلها. ثم حذّرتنا من الأدب، أخبرتنا كيف أنَّ الكُتّاب أيادٍ ماهرة في رسم البذاءة، بصورٍ ملتهبة، ويربطون أشدّ التفاصيل فحشاً، التي تصِفُ أسوأ الآثام الجسدية بالتحليل الدقيق وإلباسها بكافة أشكال البريق ومفاتن الأسلوب بحيث أنهم لا يتركون شيئاً دون انتهاك. والآن وقد أصبحت الأثيرة لديها، سأحمل كتبها وصُحفها الأسبوعية عائدة إلى طاولتها، إلى الصالون الصغير وهناك أقوم سرّاً بقراءة رسالة صاعقة تناقشُ تفضيل إجراء دراسات على الجسد العاري، وعن حمّامات الشمس، وحمّامات الهواء والتمارين الرياضية التي يُشارك فيها أفراد من

---

78 سمعان الدبّاغ ورد ذِكره في الإنجيل (أعمال الرُّسُل 43:9) - المترجم

Twitter: @ketab_n

الجنسَين. والجواب الصريح كان أنَّ نحت التماثيل العارية الحديث أو التي يكاد لا يسترها شيء أو الصور الفوتوغرافية كلها على جانب هائل من الخطورة وأنّ التحديق الصارخ إلى تلك الأشياء من دون أي سبب مُبرَّر هو في الواقع إثم فاحش حقاً. وإذا كان لابدّ من رسم لوحة بهذا المعنى، كان يُنصَح بأنْ تُتَّخذ الاحتياطات كلها، بما فيها ستر الأعضاء الجنسية، وتجنُّب المزج بين الطبقات الاجتماعية وكبح البذاءة. كان يقول إنَّ حمّامات الشمس، وحمّامات الهواء التي يمارسها كلا الجنسَين بلا ملابس هي مصادر خصبة للإثم، والألعاب الرياضية إهانة في حق الاحتشام.

قرأته رُغماً عني، ثم تابعت ارتقاء الدَرَج إلى السرير بساقَين مختومتين ويدين متشابكتَين، وابطَين من شِدّة القُرب بحيث لا يمكن لبرغوث صغير أنْ يتسلَّل إلى هناك. الروتين نفسه – خلع الحذاء خارج باب المهجع، وخلع الملابس الإستراتيجي تحت وقاء رداء النوم وتحت المظلة نفسها الاغتسال في حوضٍ من الماء البارد، ثم لبس رداء النوم ونطق المزيد من الصلوات الليلية.

كان مُعظم الأسرّة تصرّ وبعض الفتيات الأشدّ خشونة كنّ يقفزنَ إلى الأعلى والأسفل، لكي يلفتن الأنظار إلى هذه الخاصيّة. وأحياناً كانت تُمرَّر سرّاً شرائح من الكعك، والبسكويت أو الكرز بيننا لنأكلها في الظلام، ولم يكن ينال من لذّة أكلها إدراكُ الإثم

الذي نرتكبه، الإثم الذي سوف يُضطر أحدهم، في يوم أحدِ المقبرة في المستقبل البعيد، إلى الصلاة تكفيراً عنه في ذلك التلاقي لأرواح الأحياء والموتى.

Twitter: @ketab_n

في صباح أيام الآحاد كنا نشرب عادةً أكواب شاي سينا وبعد ذلك يحدث اندفاعٌ هائل مصحوب بقلقٍ هائل لبلوغ أحد المراحيض الأربعة، الموجودة عند منبسطات الدَرَج الأربعة. ثمة طوابير في كل مكان، فتيات يقبضن على بطونهن ويُقسمن على أنَّهن غير قادرات على التحمُّل أكثر، وذلك لكي يكون دورهن هو التالي، وضربٌ عنيف على الباب لأنهنَّ يواجهن صعوبة في التعامل مع السلسلة المُعطّلة. وفي غمرةِ تخبُّط إحدى الفتيات تُسقط ورقة نقدية بعشرة شلنات ورديّة اللون في المرحاض وعندما قالت الراهبة الرئيسة بالمصادفة إنَّ هناك الكثير الأوراق النقدية المنتشرة في كل مكان انفجر الجميع بالضحك، ولكن لا أحد فهم السبب على الرغم من سؤالها المتكرِّر والمُلحّ عن الأمر. لقد أحسّتْ بوجود مؤامرة قذرة وشائنة وعِقاباً لنا كانٍ علينا أنْ نتحمَّل جميعاً الدرسَ طوال اليوم التالي، واللواتي سعلنَ أخذنَ وجُعلنَ يقفنَ بالقرب من منبر الخطابة قبالة التلميذات جميعهن.

مربّى في يوم الأحد. لا أزال أستطيع أنْ أراها. مربّى الراوند الخفيف كالماء، بلونها المائل إلى القرمزي، يُمدّ على طول أحد جوانب شريحة الخبز، بين شريحتين أخريين من الخبز مدهونتين بشحم الخنزير صنعتها على عجَل الراهبة العلمانية قبل أنْ تنطلق لتؤدي واجباتها الأخرى. كان يوم الأحد ممتعاً لأننا كنا نتناول المربّى، ونتمشّى طويلاً في ضواحي البلدة، وفي المساء نقوم ببعض الأعمال الطائشة ونفلت من عقابها كارتداء بلوزة بيضاء أو وضع مشبك منزلق في الشعر. وتقع فتيات في حب فتيات أخريات، وتتشابك الأيدي وتلتف أمشاط الأقدام معاً من تحت الطاولة الطويلة ودائماً يتذكّرن مُسبقاً كرسي الاعتراف الصغير، والستائر ذات اللون الخبّازي،

Twitter: @ketab_n

والأبواب المنزلقة واستجواب الكاهن المُدقّق. كانت الفتيات يقمن في حب الراهبات وتُصبح الراهبات إما مدللات أو ضحايا لفتاة بعد أخرى حسب أمزجتهنّ، وفرائسَ لأشرسِ أنواع النزوات، ربما نظراً لمشاكلهن الخاصة والأنظمة التي عليهن أنْ يرضخنَ لها، أنظمة لا نعرف شيئاً عنها. كنتُ أنظر إلى راهبتي المُفضّلة وأفكّر كَمْ مِنْ شعرها المقصوص قصيراً، كثيراً كان أم قليلاً، يختفي تحت البلوزة القصيرة وينتهي بي الأمر إلى التفكير بشكلٍ غير ملائم في ما قرأتُ حول الطبقة البيضاء التي تتشكّل على لسانِ المُدخّن وكيف أتأكّد إنْ كانت تكوّنت لديّ واحدة. ينبغي أنْ تُدير لسانك حول فمك لترى إنْ كنتَ تشعر به خشناً وسميكاً، وفي هذه الحالة تكون تلك الطبقة قد تمكّنتْ منك وأصبحت تلطّخ أسنانك نفسها. وإذا نما شعرها من جديد فسوف يكون أشبه بطبقة خفيفة من الفراء. كان عقلي يُفكّر هكذا بينما هي تسألني عن حال ندائي الباطني، أو تُخرج من جيبها تورتة المربى حفظتها من أجلي. وغالباً ما كنتُ أشعر بأنَّ في إمكاننا أنْ نتبادل القُبل أو أنْ نبكي، لكننا لم نفعل.

في مكان قريب كان يوجد مأوى المقاطعة، حيثُ يُقيم العجائز من الناس؛ رجال ونساء في مساكن مختلفة، يُصلّون، يجلسون في الأرض المحيطة بالمأوى، يؤدون بعض أعمال البستنة، أو العزق، أو الخياطة، يتدافعون لتناول وجباتهم، عقول بعضهم ليست على ما يُرام، يتأخّرون في المجيء ويتلقّون التأنيب من الراهبات، وينتظرون يوم الجمعة بفارغ الصبر، يوم المثوى العائلي؛ حيث يشترون نعناعاً مُثلّجاً ومُضَغَ التبغ. وكان يُسمح لي، أنا صاحبة النداء الداخلي الذي يُزيّن رأسي، أنْ أزور راهبة هناك تصلني بها قرابة بعيدة. كانت ضئيلة الحجم ومتحمّسة وتضجُّ بالحياة. كان من قبيل النعيم أنْ

Twitter: @ketab_n

أتمكن من شرب الشاي في صالون صغير، أنّ أشربه من أكواب من الصيني على شكل عبيد وأنّ أراقب السكين التي على شكل منشار وهي تخترق الكعكة الأسفنجية المثالية؛ كانت صحبتها رائعة، وكذلك الإجابة عن أسئلتها كلها على الرغم من أنها تكون قد طرحت سؤالها التالي، والأكل حتى الشبع. وذات مرة قالت كلا إنها لن ترغب في عيش حياتها من جديد فيما لو أنها تنبّأتْ بتقلّباتها أما أنا، المُتخمة بالعلّيق ومع اقتراب العطل، فلم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا كانت تقول، كل ما كنتُ أعرف هو أنني مُتيَّمة بها.

كان يوم عرض مسرحية المدرسة يوماً فاتناً بما يُمارَسُ فيه من حُكم ذاتي للجميع. كانت غرف الدرس تتحول إلى غرف لتغيير الملابس، والسبورات تُستخدَم لتعليق المعاطف والأوشحة وفوقها الملابس المُزخرفة وتُرمى الممسحات والطباشير في أي مكان قديم. والرائحة التي تسود كانت رائحة الإثارة، والعرق وبودرة بوند للوجه. كنتُ أرتدي رداءً رومانياً طويلاً ورحتُ أتلو «أصدقائي الرومان، أبناء وطني، أصغوا إليّ». وقفتْ راهبتي المُفضّلة في الأجنحة تصلّي لأجلي بينما كنتُ أرثي موت قيصر واستطعتُ أنْ أسمع فتيات أخريات في الكواليس يضحكن ويشتمن وهنّ يرتدين أزياءً لسن متعوّدات على ارتدائها.

قلت «إنَّ الشر الذي يرتكبه الرجال يبقى بعدهم»، ثم صمتُّ لأنظر إلى جمهوري المنتشي. ولم أكن قد عرفتُ دهري مثل ذلك السكون وعندئذٍ بالضبط قالت صديقتي الراهبة «برافو» من مكانها بين الأجنحة. بعد ذلك تبادلنا الهدايا، هديتي كانت صندوقاً

Twitter: @ketab_n

وزنه ثلاثة أرباع الرطل من الشوكولاة مع اثنين من ملوك الصيد يرقصان على الغطاء وهديتها لي كانت بطاقة صغيرة مُضيئة ذات حواف مُشرشرة تنبّأت فيها بالدور الذي سأمثّله في المستقبل كعروس للمسيح. ثم تفحّصتْ أصابع قدميّ وضحكنا ومن ثم حان وقت تلبُّس الجديّة لأننا كنا سنفترق بمناسبة أعياد عيد الميلاد.

بدا العالم الخارجي والريف الممتدّ ينضحُ بالجمال والتلال ذاتها بدا كأنها تتنفَّس. إنَّ كل أنواع الحرمان تهون مقابل هذا التحرُّر، هذه العودة إلى العالم الطبيعي. هناك نبات البهشيّة[79] بثمارها تماماً كما في قصة سعيدة من قصص عيد الميلاد، وأغصان الشتاء التي تعِدُ بالحياة، وطائر أبي الحنّاء الذي ينتقل من غصن الزعرور البرّي إلى غصن برقوق السياج، إلى شجيرة وإلى شجرة شتاء ضخمة، يُسقسقُ ولا يُسقسقُ؛ وهناك الحقول التي تكتفي بالتلألؤ بالصقيع وقريباً ستكون هناك مثلجات على الكعكة ومرايا الثلج الصغيرة الهشّة على سطح البركة الموحلة، وخمسة منا نحن الفتيات داخل سيارة أجرة نضحك ونصرخ لمرأى أصابع السائق الملوّثة بالنيكوتين. والفتاة تعلم بصورة ما أنها في عيد الميلاد سوف تُدخّن، وتذهب إلى أول حفلٍ راقص يدوم طوال الليل، فتدور وتدور على أنغام لحن إيقاع الفالس أو انزلاقِ خطوةِ الباليه وتعود إلى الدير مع سرٍ تتقاسمه مع ليديا، الفتاة ذات العنق الأبيض وغرّة الشَعر الطويلة التي تلتفّ أحياناً وتصفع بها، وكأنها سوط.

---

[79] البهشية: نبات ذو ورق صقيل شائك الأطراف وزهر صغير ضارب إلى البياض.

Twitter: @ketab_n

إذا كان الذهاب إلى المنزل هو أعظم المناسبات ولا يُضاهيها شيء، فالعودة بعد ذلك بشهر كانت تُنزِلُ عقابها الكامل لأنّه في ذلك النهار يكونُ مطرٌ وعويل ونتخيَّل اثنا عشر أسبوعاً أخرى من الشحم، والأروقة الباردة، والاتّهامات والانقطاع عن موقد الحياة، وعدم القدرة على الخروج ليلاً من أجل النظر عالياً وتأمُّل النجوم، في كبد السماء.

في العام التالي أو الذي تلاه نلت امتياز لعب دور سيدتنا فاطمة[80]، وكانت منصّتي السماوية عبارة عن ستة صناديق من الزبد مكسوّة بالتول الأزرق. وظلّت الستائر مرفوعة مدة أسبوع وظهرتُ فيه كرؤيا في حين أنه في الأسفل على خشبة المسرح الدنيوي، كان الأطفال الصِغار يرفعون الصلوات ويطلبون التنبؤات عن البرتغال والعالم. كان دوراً يتطلّبُ السكون التامّ. ولم تكن سيدتنا تُحرّكُ ساكناً ولكنْ في الليلة الأخيرة، ونظراً للتوتر الناجم عن الوقوف، ورهبة خشبة المسرح، وتذبذب صناديق الزبد التي لم تُثبَّت كما ينبغي، مما أحدث اهتزازاً متواصلاً وكهمتي دمبتي[81] رحت أتخبّط مما أحدث ارتباكاً بين الممثلين، والراهبات والزائرين من أعضاء الهيئة اللاهوتية. ولم يستمر العرض، وفي المهجع، تمنيتُ، يمضّني الإحساس بالخزي، ألا يأتي أحد ليُبدي تعاطفه معي، وألا يعود أحد إلى الإشارة إلى الأمر

---

[80] سيدتنا فاطمة: فاطمة هي قرية في البرتغال، يُقال إنه فيها كانت تتجلّى السيدة العذراء لثلاث فتيات صغيرات من الرعيان علم 1917 في اليوم الثالث عشر من كل شهر، على مدى ستة أشهر. وتسمّى أيضاً سيدة المسبحة. - المترجم

[81] همبتي دمبتي: هو رمز لكل مخلوق قصير وبدين والذي إذا وقع لا يتمكن من الجلوس ثانية. - المترجم

Twitter: @ketab_n

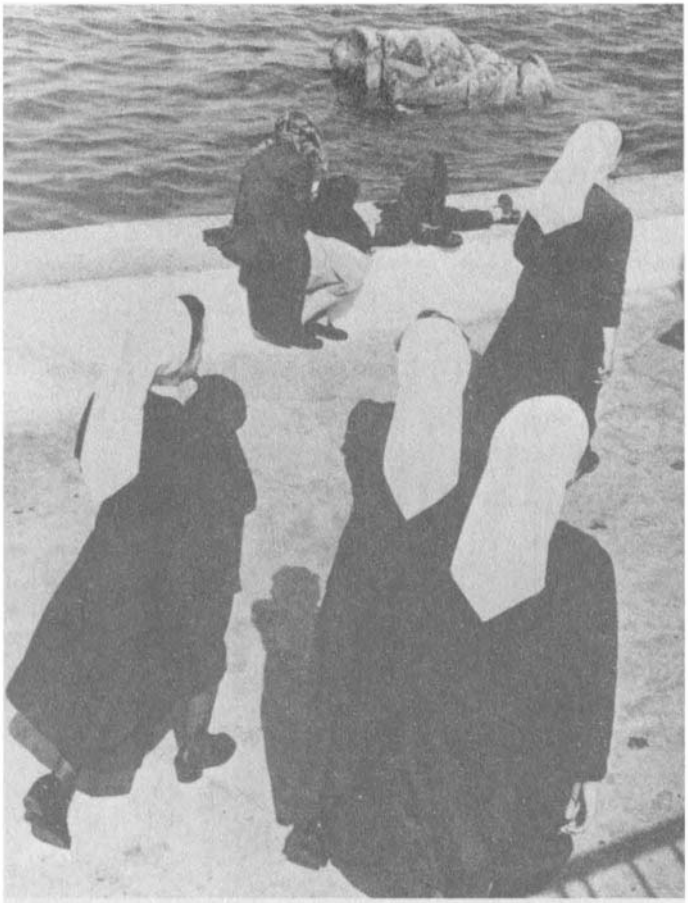

راهبات عند رأس بحري، مقاطعة دبلن:

«يتساءل الناس فيما بينهم: هل تعتقد أن الراهبات لا يزلن يرتدين السروال القطني الأزرق الداخلي القصير، أم أنهنّ يواكبن تطور الزمن ويرتدين السراويل الداخلية الصغيرة التي تتلاءم مع عاداتهن الجديدة؟»

Twitter: @ketab_n

أسرّة التوبة في مطهر القديس باتريك، في لوف درغ:

على امتداد فصل الصيف ينطلق الناس أربع مرات أو خمس كل أسبوع وهم حُفاة وينتشرون حول الأسرّة الحجرية. يسيرون، يركعون، يُردّدون صلوات معيَّنة مطلوبة. وتسميتها بالأسرّة يعني التساؤل حول عدد هائل من الأشياء الواهنة. إنها ركام من الحجارة تعود إلى العصور الوسطى صمّمها ساديٌّ مُتطلّب بحيث تخترق الحجارة، والرؤوس المُدبَّبة للصوّان وكل رُقاقة من حصى، اختراقًا تامًا أخمص الأقدام حيث يبدو أن معظم النوازع الطبيعية تتمركز.

في الزمن الغابر كان الأمراء، والكفّار، والآثمون والمسافرون، يقومون بالارتحال سيراً على أقدامهم من بلدهم، أو قارّتهم، أو منزل الأسرة، وبعد صيام خمسة عشر يوماً يُقفَل على كلٍ منهم داخل كهف طوال الليل. وأثناء فترة الاحتجاز تلك، تراود العديد من أولئك الأشخاص رؤى بشعة ومُخيفة وكأنها مستشفى مجانين، «حيث يَبرز عفاريت مخالبهم في وجهه، يندفعون نحوه، يقفزون عليه بحقد وبين الحين والآخر يجعلونه أشدّ صراحة في مرحه الصاخب منه في كلامه، بحيث أنه غالباً ما يكون مع حلول الصباح قد أصابه الإغماء ويُغني الموتى جميعًا بصوتٍ عالٍ إلى أن يستعيد وعيه، ويعي بغموض رحلته المخيفة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

خارج مكتب مراهنات في دبلن:

Twitter: @ketab_n

الرجل الأول: «هل راهنتَ ببعض النقود على الحصان الذي أخبرتك عنه – وردة البراري؟»

الرجل الثاني: «فعلتُ»

الرجل الأول: «ثم؟...»

الرجل الثاني: «وقفَ ليتبرَّز ولا يزال يفعل»

Twitter: @ketab_n

مشاهدون في مضمار ليوبارد زتاون للسباق:

Twitter: @ketab_n

في السباقات كان يوجد المتأنقون يحملون البطاقات والمناظير، ووكلاء المراهنات مع حوامل الإعلانات وألواح الكتابة، ورجال لغة الإشارات، وحشود الناس التي تتجمّع ويسأل أحدهم الآخر إذا كان منهم رابح. وغالبًا كان الرجال هم الذين يُراهنون والنساء والأطفال يتجمّعون في الأكشاك والسقائف حيث يبيع البائعون مسحوق الليمونادة والبرتقال، وأساور العِظام، وحيث وُضِعَتْ كلاب من الخزف الصيني لكي تُربَح بالقرعة.

Twitter: @ketab_n

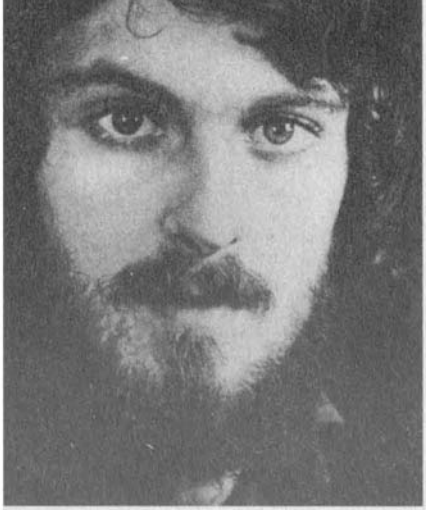

فينبار نولن – مُعالِج بالإيمان – الابن السابع لابن سابع:

ها هو ذا، المُعالِج بالإيمان، الساحر، يُخبرنا إنَّ عليه أن يلمس اللحم. كان صبياً يافعاً تجمع صورته مزيجاً من قَسَمات جورجي بست[1] ولوحة جيوتو[2] للقديس يوحنا المعمدان. يجب أن يلمس اللحم.

وتمّ خلع سترات الصوف المحبوك، والجوارب، والعباءات، ومشدّات الخصر، والصدريات، والقمصان النسائية الداخلية، والأردية الكهنوتية، والصدارات وحتى الأوشحة الكتفيّة. ثوب من اللحم الأبيض، لحم كثير الدهن، لحم قرمزي، لحم بدين، شتى أنواع اللحم مكشوف بصورة مُثيرة للشفقة تحت المطر الغزير غريب الأطوار بعد ظهيرة يوم صيفي كئيب في إيتيس، مقاطعة كلير. كانوا يتحدثون معه همساً، يُفشون بصورة أو بأخرى أسراراً متشابهة.

«لدي آلام في معدتي ولديّ حصى»

«لديّ تيبُّس في عنقي وتيبُّس في كتفيّ. لدي تيبُّس في كل مكان»

«هناك في الأسفل الآن وعلى طول ساقيّ، وعلى ردفيّ وهلاّ وضعتَ يديك على شرايني هلاّ فعلت، هناك، وهناك...»

---

[1] جورجي بست (1946- 2005): لاعب كرة قدم أيرلندي مُحترف. كان يلعب في الجناح مع فريق مانشستر يونايتد. في عام 1999 اختير كأحد أفضل 11 لاعباً أوروبياً في القرن. في آخر حياته أدمن على الخمر ومات متأثراً بمرض الفشل الكلوي عن عمر ناهز 59 وذلك في عام 2005. – المترجم

[2] جيوتو (-1266 1337): رسام إيطالي من فلورنسا. يُعتبَر مؤسِّس الفن الحديث في الرسم. اشتُهِرَ بلوحاته الدينية. – المترجم

Twitter: @ketab_n

عطلة في بندوران:

إنها أرض كل ما هو رخيص من حانات، ونُزُل وتسلية. شاب يُغني «قولي إنكِ تُحبينني». في الصالة رقص من الأنواع كلها، وفي قاعة الطعام رجلٌ ذو أنف مُدمن خمر يطلب نسيج موسلين لكي يُصفّي من خلاله مشروب البورت، وفي حانة معيَّنة هناك رجال من الجيش الجمهوري الأيرلندي ينتظرون التطورات. وأبعد قليلاً على طول الساحل، تحت صخرة بِنْبِلبن المهيبة غريبة الشكل[3]، يتقلَّب ييتس في قبره بسبب الحانات، والنُزُل، والأطباق البغيضة التي تُسمّى باسمه.

---

[3] الإشارة هنا إلى قصيدة كتبها الشاعر الأيرلندي ييتس في أواخر أيامه، وعنوانها «تحت بِنْبِلبِنْ»، وهي صخرة تشكّلت بفعل حركة الجليد، وموجودة في مقاطعة سليغو الأيرلندية، التي تُعرَف بصورة غير رسمية بمقاطعة ييتس. - المترجم

Twitter: @ketab_n

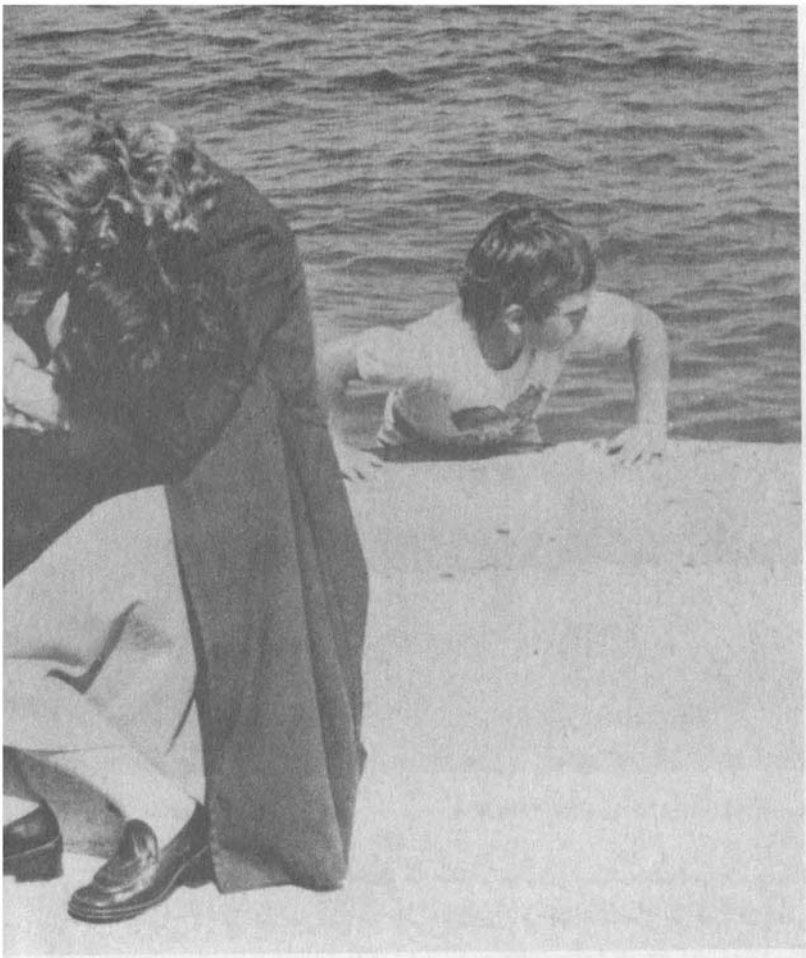

حبّ غضّ:

Twitter: @ketab_n

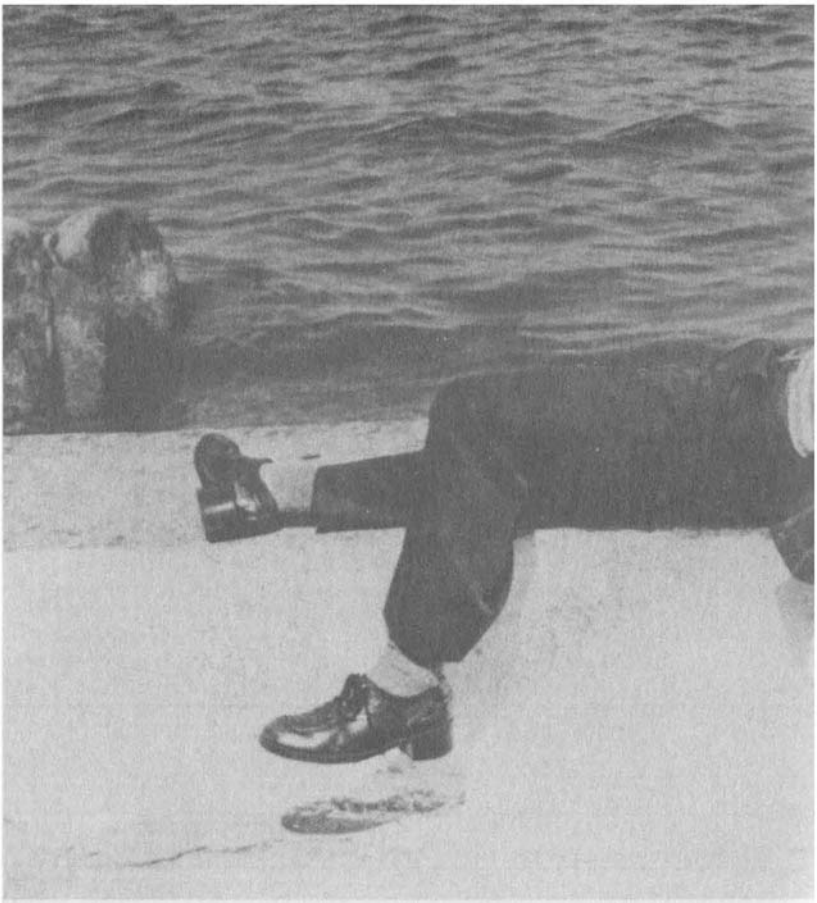

يقول كُتيّب بعنوان «هل لي أن أبقى معك» إنّ الناس قد يُدافعون عن سلسلة الظروف التي أدّتْ إلى سواد العفّة الجنسية، ولكن إنّ مثل هذا لا يصحّ إلا بعد مرور سنٍ معيّنة أو إذا كان شخص كسيدتنا العذراء قد حبلَتْ بدون اقتراف الرذيلة الأصليّة. ولكنْ إذا أخذنا الطبيعة البشرية في الحالة العادية نجد أنه ليست هناك علاقات خيالي محميّة كثيراً ضد الوله الحسّي الحقيقي.

Twitter: @ketab_n

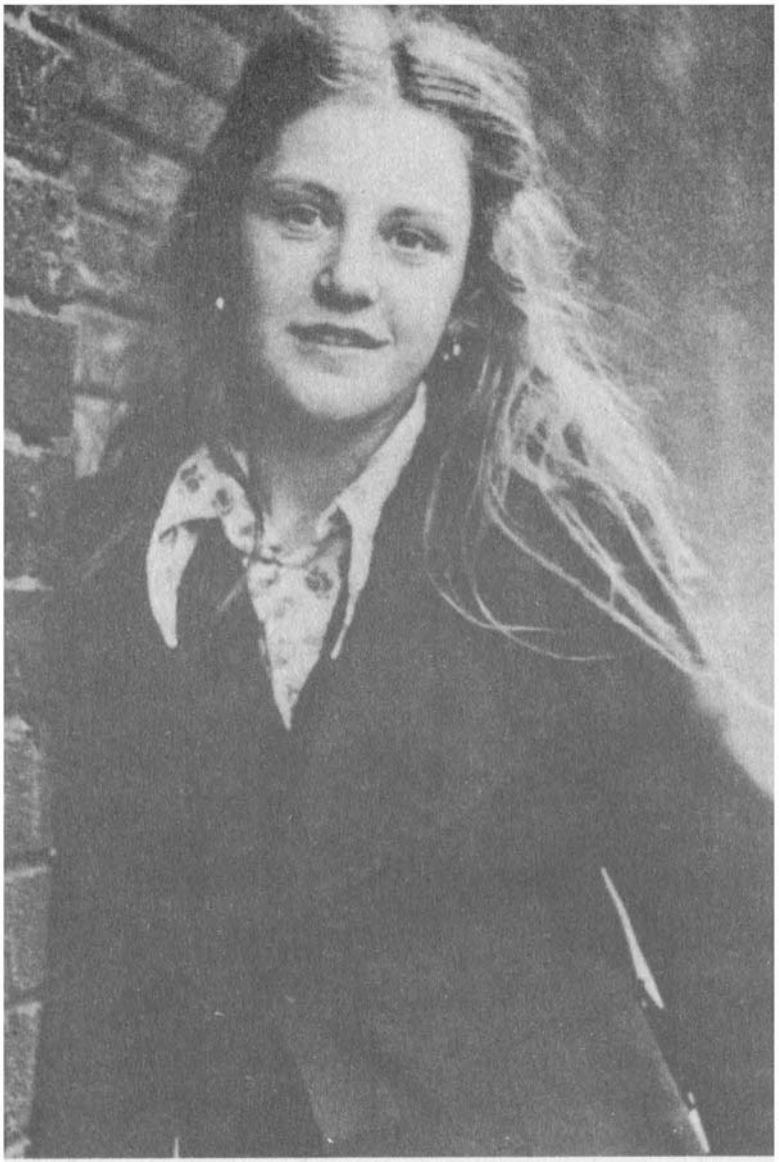

فتاة فقيرة من شوارع دبلن الخلقية:

سأتزوجك بلا قطيع، بلا مال، أو ثوب غالٍ.

وسأتزوجكَ في صباح يومٍ نديّ، عند فجر يومٍ غائم.

Twitter: @ketab_n

من جديد وأنّ أتلاشى هكذا ببساطة عن وجه الأرض. وتساءلتُ إنْ لم يكن ذلك عِقاباً لي على إثم ما ارتكبتُه، إثم الكبرياء، إثم الغرور، الغرور الناتج عن التباهي بوجهي الشبيه بالفطيرة اللينة في كل ليلة، والجسد المكسو باللون الأزرق الجميل وبأهمية انتقائي من أجل لعب الدور الرئيسي في المسرحية. ونظرتُ إلى واحدة من الصور العديدة للعذراء الموضوعة على طول الجدار وأدركتُ أنها لم تعُد تُكلّمني كما كانت تفعل وأنا طفلة. كانت الرؤى تتضاءل.

في فصل الصيف التالي واعدني ذات ليلة مساعدٌ جاء ليعمل في المقشدة، وسمعت، وأنا أسترخي على البوابة الحديد، عن أ.ج كرونين[82] (1896-1981) بينما العاشق يتحسّس – أولاً التنورة الخمرية، ثم رباط الجورب، ثم الجوارب المجعدة ومن ثم السروال النسائي الداخلي الساتان الطويل. جمدتُ في مكاني، وعلى الأثر سأل «لماذا ترتدين هذا السروال الداخلي، ما الداعي للتأنّق، ما سبب هذا الاستفزاز؟»، وكل ما قلتُ كان إني لا أعلم وهكذا انتهى اللقاء بسرعة.

قالت أمي «أراكِ عدتِ باكراً». شعرتُ بالكآبة. سألتْ ما الذي دهاني بحق الله بما أني لم أعُد الفتاة الصغيرة المرحة التي تضجُّ بالحيوية. طلبتُ خوخاً. كان هناك وعاء كبير من الخوخ ذي البذور الملتصقة في دولاب في الطابق العلوي وفقط تلك التي ستنزلق أسفل بلعومي ستُشبع نهمي. وسألتْ إنْ كنتُ بالمصادفة قد جُننتُ.

---

[82] طبيب وروائي وكاتب مسرحي اسكتلندي شهير. من رواياته: «النجوم تنظر إلى أسفل»، و «القلعة» و «مفاتيح المملكة» وغيرها. تحوّلت كلها إلى أفلام سينمائية.

Twitter: @ketab_n

كنتُ أعلم أنه لا يمكن فتحها. كانت موجودة هناك منذ سنين، كمتاع مورَّث، وليست للاستهلاك الآدمي، كانت زينة للافتخار بها كالأكواب الأصيلة أو الكؤوس الأصيلة أو مُلصَق سيدات باريس. انتشر الغضب كالطفح وفي الحال علمتُ أني لن أُصبح راهبة، بل نجمة سينمائية أُصفِّفُ شعري وأوفِّر مبلغاً لأشتري به تنورة بها ثنيات على شكل أكورديون، وأحصل على حذاء بكعبٍ عالٍ، وعِطر وقفاز مُبطّن بالفرو. وسمعتُ الشاعر و.ب ييتس يُناديني:

تعالي، أيها الطفلة البشرية!

إلى المياه والبريّة

مع جنيّة، يداً بيد،

لأنَّ العالم أكثر امتلاءً بالدموع

من قدرتك على فهمه.

لكني لم أُصغِ إليه.

Twitter: @ketab_n

6. دبلن مدينة جميلة.

كان شَرَك الغابة المُظلمة وأيكة البندق يُفسحان المجال للتوق الشديد إلى البهرجة. كان الاستمتاع المُطلق باللعبة السرّية قد تلاشى – لعبة اللجوء إلى الغرفة الخالية من أجل تلقين الأحذية أصول الإلقاء الأيرلندي والإنكليزي. كان الأمر قد أصبح مملاً. كذلك الحال مع الهواية الأخرى في جمع قسائم نجوم السينما وتبادل الأحاديث الواعدة معها. لا يمكن للمرء أنْ يمكث إلى الأبد بجوار موقد النار بصورها وتنهداتها، أو مع الناس وصورهم وتنهداتهم، أو أنْ يشهد العلاقة الحميمة الغريبة بين رجل وامرأة متخاصمَين، يُدمدمان، ولكن أحياناً يجتمعان معاً في غرفة أخرى مدة دقيقتين أو دقيقتين ونصف وهما يُصدران ضجيجاً يقترب كثيراً من التعبير عن اليأس. بل يجب الرحيل؛ الهروب إذا لزم الأمر؛ وضعُ ملاءةٍ كبيرةٍ على تلك الأشياء كلها، التنهدات والضجيج؛ نسيان الأصوات والهدير؛ وترك رسالة وجيزة تقول «لقد رحلتُ مع الفجر الصاخبين، أوه»؛ حزمُ حقيبةَ أوراقٍ صغيرة وحملها والسير بها على الممشى، ووضع الإبهام على الغطاء خشية أنْ تصدر الأقفال طقطقة، وتقول لكل علامة على الطريق عبارة وداع فظّة، متغطرسة، وتطأ من باب الاحتقار نبات الفطر المُسالم، وتضرب شجرة الدردار، الشجرة التي خرجت منها سلسلة من النباتات التي تُستخدَم في جَلد الحيوان

Twitter: @ketab_n

والإنسان على السواء. وداعاً لأكوام التراب الصغيرة المتواضعة، لزهرة الشيخ[83]، لدرب الدجاج، للدجاجات الحمقاء، وداعاً للأرض المحروثة، وداعاً للبوابة الخضراء ذات المشبك المعصيّ على الفتح، الوداع للأشباح التي فيها تكمن بذور ضحك المستقبل كله، وللحياء والكرب. الوداع للماضي الذي لا يُمحى.

كانت دبلن هي وِجهتي وأخيراً وصلتُ إليها بالقطار، والحقيبة مدعّمة بخيط قنّب، والرأس مملوء بالوهم؛ أفكّرُ في قَدَري وكأنّه قَدَر بطلة عملٍ فنيّ خبا نجمها بعد أنْ جُلِبَتْ من مَنستر[84]، «لأنَّ السلّ لا يرحم العيون الزرقاء والشعر الذهبي».

إنَّ دبلن مدينة جميلة. لم أكنْ أعرف أي شيء عن A.E [85]، وجورج مور، وحسبتُ أنَّ ييتس يعيش بسعادة في مكانٍ يُسمّى إنّسفري (أينما كان)، وعلمتُ أنَّ المُبارَك ماتْ تالبوت[86]، البنّاء المُكافح، انهارَ وسقط وتوفي وكانت تُحيط بجسمه سلسلة ثقيلة، وعلمتُ أنَّ شون أوكيسي[87] قد كتبَ عن أُناسٍ يُقيمون في مساكن تقع في الشوارع نفسها التي كنتُ أقود فيها الدراجة إلى المُصلّى، لكي أؤدي تاسوعيّة[88] من العبادة المتواصلة. وكان في دبلن في ذلك الوقت

---

83 زهرة الشيخ: نبتة شائعة ذات زهر أصفر وأوراق بحوافٍ غير مُنتظمة.

84 منستر: مدينة في ألمانيا.

85 .A.E هو الاسم المستعار للكاتب جورج وليم رسل. - المترجم

86 ماتْ تالبوت (1856-1925): متقشّف أيرلندي، لقّبه الكاثوليك بالمحترم لورعه وتقشّفه. عاش حياته وحيداً، لولا الحبال والسلاسل التي وُجدت على جسده لدى سقوطه المفاجئ في شوارع دبلن لما لاحظ وجوده أحد.

87 شون أوكيسي (1880-1964): كاتب مسرحي أيرلندي كبير. كان اشتراكياً وكتب عن الطبقة العمالية الأيرلندية.

88 التاسوعيّة: عبادة تستمر تسعة أيام. - المترجم

Twitter: @ketab_n

عدد هائل من الدراجات وعندما سُرِقَتْ درّاجتي يئستُ من العثور عليها، وعندما استُدعيتُ بعد ذلك بأسابيع إلى مركز الشرطة لأتعرَّفَ عليها وجدتُ أني مُشوّشة، فكل الدراجات كانت متشابهة في دوّاساتها المتهرّئة، المنقوعة بالمطر، وبواقيات الوحل البالية وبأضوائها الخلفيّة الصغيرة المُطفأة. ولسوء حظي كانت تحمل رقماً وأُعيدَتْ إليّ لكي أعود إلى قيادتها كالسابق، أشقُّ طريقي على متنها بشكلٍ محفوف بالخطر في شارع أوكونل، لكي أحضر محاضرات الصيدلة في شارع مونت. وكان هناك تسميع جارٍ حول القيادة الرديئة والطرقات الخطرة وكنتُ أُردِّده لأتسلّى:

البعض يموت من أجل الحب، والبعض من أجل الوطن،

لكني سأواجه موتي عبر شركة دبلن.

لو كنتُ أعلم أنَّ بيتس وصفَ اجتياز مود غون[89] لتلك الشوارع كفمامة مشتعلة لترجّلتُ عن الدرّاجة بروح العبادة والمنافسة وغنّيتُ أغنية صغيرة لها. العمل في صيدلية أثناء النهار وحضور المحاضرات في الليل كان مهنة مؤقتة ودنيوية صِرفاً. لم أتمكن من تقرير ما إذا كنتُ سأصبح فقيهة أم مُغامِرة، بما أني لا أتحلى مما يلزم لأكون أياً منهما إلا بغُرّة من الشَعر، ووشاح لبذلة جنتلمَنْ بيضاء اشتريتها من مكتب رهن مقابل بنسَين.

مكتب الرهن كان قريباً من نُصب بارنل وذات ليلة أثناء عودتي إلى المنزل سيراً على قدميّ عائدة من سهرة رقص مع مُرافق –

---

[89] مود غون (1866- 1953): ثائرة ايرلندية وقع الشاعر بيتس في حبها. وعلى الرغم من أنه طلبها للزواج مرات عِدة إلا أنها تزوجت من آخر، ثم انفصلت عنه وقُتِلَ بطلقٍ ناريّ. - المترجم

Twitter: @ketab_n

رجل ملتح من شركة جونسن، كينيدي وأوبراين – استعرضنا واجهات المحال التجارية وفي مكتب الرهن شاهدنا أحد الثوبَين اللذين كنتُ أملكهما وشاهدني أرتدي معروضاً كذيل الطاووس – تنورتي البرّاقة، من قماش الطرطان، ذات الثنيات. ثم انتقلنا إلى دكان اللحّام أبعد قليلاً ورحنا نُحدّق إلى قطع لحم الشواء بما يُحيط بها من شحم وقرأنا المقترحات الرئيسة للوائح وجبات يوم الأحد. بعد ذلك تفرّجنا على واجهة محل لبيع النظارات وأعادت النظّارة المُكبِّرة ذكرى رجال عجائز يميلون على أضرحة. ثم مررنا على محل لبيع السكاكر مملوء بعُلب قصديرية مستديرة وبرّاقة، علب على أغطيتها رسوم لمهرّجين، وفي داخلها تشكيلة منوَّعة من السكاكر، كلها خشبيّة ولكنها مُغلّفة بطريقة جميلة بورق الفضة ومن ثم لُفَّت بورق زجاجيّ أحمر اللون. كنا دائماً تقريباً نشعر بالجوع عندما نتفرّج على واجهات محال الأطعمة تلك حتى أننا كنا نروي مواقف نجلس خلالها لتناول طعامنا بفرش مناديلنا، ونشم رائحة صلصة مرق اللحم وفي تلك الأيام التي لم نكن نشرب خلالها الخمر كنا نصب الماء من صنبور كبير في كؤوسنا المبقّعة قليلاً ويتلوَّن فيها الماء بتدرّجات اللون الأزرق. وفي تلك المناسبة لم أتذوّق إلا نبيذ التوت البري وكانت نكهته الحلوة المُسكِرة قد بدأتْ تضعف.

كان بائع الخبز لاعب هرلي[90] كشأن كل الأشخاص «اللُّقطة». وكنا في يوم الأحد نذهب إلى كروك بارك لحضور مباراة بلعبة الهوكي، كيفما كانت حالة الطقس. كنا دائماً نصل قبل الموعد بساعات ونلهث من فرط شوقنا لبدء المباراة، ومراقبة الأبطال

---

[90] لعبة أيرلندية تشبه لعبة الهوكي حيث يستخدم الفريقان العصي في ضرب الكرة.

Twitter: @ketab_n

العديدين ينسابون في المكان ويُسجّلون النقاط أو الأهداف، بل إنهم أحياناً كانوا يغضبون من بعضهم البعض في الملعب ويلجؤون إلى اللكمات. كان الاستمتاع شيئاً لا يبتعد كثيراً عن النشوة الجسدية.

كان بائع الخبز قد فرَّ هارباً ولكن كان هناك العديد من الرجال المُذهلين الآخرين وكان صعباً معرفة مَنْ هو الأشدّ وسامة بينهم، مَنْ هو الملك. كنا نتسكّع بالقرب من غرف تغيير ملابسهم ونسمع طرطشة الماء في الداخل أثناء أخذهم دشّ، ومن ثم نفقد السيطرة على أنفسنا أو حماستنا لدى خروجهم، لأنه لم يحدث ولا حتى مرة واحدة أنْ اندفعنا إلى الأمام مع دفتر التوقيعات أو زهرة بنفسج مسحوقة أقسمنا على أنْ نُعطيها لهم. بدل ذلك كنا نتبعهم ونحن نجرّ أقدامنا خلفهم في شوارع عديدة في طريقهم إلى الفندق حيث كان معروفاً أنهم يشتاقون لعشيقاتهم ويقابلونهن ويشربون قبل أنْ يذهبوا للرقص أو «الوثب». قال أحد الرجال وهو يقبض على ذراعي، «هيا الآن، يا آنسة، وسأُريكِ ما هو معنى الحياة»، فكان لابد لي من أنْ أهرع إلى مرحاض السيدات لاجئة وأبقى هناك وأنا أرتجف لعلمي أنه في انتظاري. كانت صديقتي الحميمة في الداخل تقفز وتثب مستمتعة لأنَّها «حصلتْ على عمّتها»[91] تواً وكانت تُحدّقُ في حوض المرحاض وتُقسِمُ على أننا سنقابل لاعبي هرلي، وسنقابل رؤساء الفريق، وسنعقد صداقة مع أشباه الأحصنة، وسنزور أماكن معيّنة. لم تكن مرة متهللة هكذا. وَثَبَتْ فرحاً ولكن لابد أنَّ ما رأته في حوض المرحاض بوصفه دليلاً على طمثها كان يخصّ فتاة أخرى لأنها بعد ذلك بثلاثة أشهر فقدتْ عملها، وأقامتْ

---

[91] عبارة رمزية تتبادلها الفتيات اللاتي يجتزن مرحلة الطفولة وتبدأ لديهن الدورة الشهرية.

Twitter: @ketab_n

في غرفة مُستأجَرة مع امرأة تقيّة كانت طوال الوقت تؤنّبها وتُعيد تقييمها ولم يكن مسموحاً لها بالخروج، إلا في نزهة قصيرة ليلاً وبرفقة حارستها. وكنتُ أقوم بزيارتها في أيام الآحاد من دون أنْ تتحدث عما يحدث معها. وفهمتُ أنَّ الثوب الوحيد الذي تملكه – ثوب أسود مع ورود مزخرفة، كان يجيشُ فوق بطنها وكانت تحتفظ بقطع نقدية من أجل استعمال هاتف منبسط الدَرَج وبرقم مستشفى التوليد مدوَّن على مُزقة صغيرة من الورق كانت تنظر إليها وتطويها وتُعيد طيَّها إلى أنْ أضحت بحجم ظفر الإصبع. لكننا تحدثنا عن الأزياء. كنا مولعتين بالأزياء. وقالت إنه لو كنا نتقن الحبك لأصبحنا عارضتيّ أزياء في المجلات. لكنها لم تأت على ذكر «الأب» العتيد أبداً، ولم يكن له مكان معيَّن عدا كونه المُحرِّض الماكر الأصلي في تلك الحكاية عن الحيلة والكفّارة.

في الرواق الطبي حيث كنتُ أقضي فترة تدريب المُبتدئين وأشد زبائني تملُّقاً كانوا الأشدّ غباءً من المؤسسة المجاورة. كانوا يأتون ويتسكّعون في المكان معظم فترة النهار يُخاطبونني بلغة الإشارات والنظرات المرتبكة، موضّحين نواياهم بأنهم لن يُغادروا أبداً، بل أنْ يُمنحوا سكّر نبات لكي يمصّوه وأنْ يشدّوا على يدي ويتخيّلوا أنهم عشّاق. كانوا من أعمار شتّى لكنَّ الأكبر سناً بينهم كانوا يمكثون مدة أطول ويومئون أكثر بأيديهم – أيدٍ مسعورة، وشِفاه تتحرّك، ولعاب، وإثارة وعيون تتضرّع. كان لديّ معطفان أبيضان، واحد بطيّات صدر تقليدية والآخر بياقة عالية مُنشّاة تُثبَّت بالأزرار عند النحر وتُظهرني بمظهر ممرضة في فيلم رومانسي. لاشك في أنهم كانوا يتكلمون حول أيّهما يُفضّلون ويُصفّقون عندما أرتدي، خاصة في اليوم الذي عاد من الغسيل وقد نُشّيَ ومُوّجَ.

Twitter: @ketab_n

بعض أوقات العصر كانت أحياناً تُقضَى في وزن أملاح غلوبر ووضعها في عبوات بوزن ربع رطل، أو في غربلة بودرة الديدان داخل مظاريف صغيرة، أو في تدوين التغيّرات التي تطرأ على الأسعار ضمن لائحة نثريات طويلة. كانت الحياة متوقفة. ومن ثم يمتلئ المحل من جديد، بأطفالٍ يطلبون بقيمة بنسَين زيت التربنتين أو بنفسج الجنطيانا من أجل طائر سمنة، ورجال ينتظرون وصفات للمعدة ويُصفّرون بشيء من الغضب، وأطفال مواليد جُلِبوا من أجل وزنهم ويصرخون بصورة لا تُحتَمَل عندما يوضعوا على كفّة الميزان النحاسيّة الباردة. ويكون هناك أناسٌ يحملون آلات تصوير صغيرة يُريدون تبديل أفلامهم، ويرنّ الهاتف، وتقدّم ربات البيوت قوائم طلباتهم الأسبوعية، وتحاول الفتاة منا أنْ تؤدي مائة عمل ووسط الضجيج الفظيع يجلس البلهاء على مؤخّراتهم مبتسمين، سعداء لأنَّ العمل قد نشط ولأنَّ هذا يعني قطعة أخرى من سُكّر النبات حالما يخلو المكان.

فوق المحل كان يُقيم أصحابه وكانوا دائماً يتناولون على موعد الشاي مقدارَ طبقٍ من الكعك من محل «الألبان اللذيذة» القريب. لا شيء كان مُغرياً كمشاهدتهم متمددين، بعضهم عليه آثار الكعك، وبعضهم آثار السكّر الناعم، والبعض مع ثمرة أو قشرة مُسكَّرة تنفجر داخل فمه، ومُدَّت مائدة لأربعة أشخاص. وكثيراً ما انتظرتُ الخادمة وهي تحملها إلى أسفل في شوقٍ لأرى ما تبقّى وإذا حالفني الحظ سرقتُ كعكة أو على الأقلّ فُتات سقطت من خلال منديل الورق إلى الطبق. وذات يوم في غرفة التخزين حيث كنتُ قد ذهبتُ لأحضر سترة من نوعٍ ما دخل المعلّم ليسأل سؤالاً وعندما حاولتُ أنْ أجيب عنه، سقطت المربى، وكريما الموكا والفُتات من فمي. وإحساسي بالخجل

Twitter: @ketab_n

الآن يُعيد إلى ذاكرتي قصة تشيخوف خطرت لي في مطعم كبير في موسكو وفجأةً بصقت ملء فم من الدم. كنتُ قد اكتشفتُ بالمُصادفة على تشيخوف ووجدتُ فيه أصدق صوت عرفته. وجدتُ غذاء القراءة والكتابة ربما. أعتقد أنَّ الذاكرة وتخبُّط الذاكرة، محشوران في لحظة مجنونة واحدة ووحيدة، هما أقوى حليف يمكن الحصول عليه. وكلما ابتعدتُ عن الماضي، عدتُ في داخلي بصورة أوضح إلى تصوير المروج، والعشب، وبعض الحيوانات العالقة تحت الورد البرّي، وبقايا الحشرات على النباتات وهبوط الليل والطريقة التي تنزع بها الكلاب الدهان عن الباب الخلفي وتتوسَّل بأجسادها كي يُسمح لها بالدخول.

الليل في المدينة كان مختلفاً، كل شيء في المدينة كان مختلفاً. الكلب كان شيئاً يؤخَذ للتنزُّه في الحديقة العامة وينتظره صاحبة ريثما يفعل ما هو ضروريّ، الكلب كان شيئاً يجلسُ داخل النافذة على قائمتيه الخلفيَّتين ويكتفي بالفرجة على سيل الحياة، في حين أنَّ الكلب الحقيقي كان شيئاً ينبح في الحقل، ويصطاد، ويُلاحق الأرانب، ويمتُّ بصلة القُربى إلى ذلك الحيوان النبيل الذي على الرغم من تثبيت أربعة رجال له وكَسرَ العديد من السلاسل لكي يُقبِّل يوليسيس، سيده الذي طال غيابه، أثبتَ هويته للذين يعتقدون أنه زائف.

كان في المدينة مباهج لا حصر لها – ملابس، مقاهٍ تُقدَّم فيها المثلجات في كؤوسٍ طويلة الأعناق وثلاثة أنواع مختلفة من القهوة.

«فنجانين جميلَين من القهوة كفتاتَين أميركيَتين جميلتَين»، هذا ما كان يُفتَرَض أنَّ جنديين أميركيين قالا ومن المفترَض أنَّ النادلة سألتْ إنْ كانا يُفضلانها من دون حليب أم به! ردَّ حَسِبَ

Twitter: @ketab_n

الجميع أنه صرخة وذروة الظُرف. وكان من المفتَرَض تجنُّب الجنود لأنه بعد انتهاء أهوال الحرب أصبحوا في حاجة جنونية إلى الفتيات. وكان يُفتَرَض أيضاً تجنُّب الرجال السود البشرة الذين يتردّدون على المقاهي أو على صالات الرقص، حتى وإنْ كانوا «ساحري نساء» عن حق، والسجائر المُقدَّمة وتحتوي على مُخدّر، وطلاب الطب الذين يتصرّفون بخلاعة، ويشربون البورتر، والمتطفلين، والذين يلقون المحاضرات ويعودون إلى المنزل بالحافلة وهم يُرتّلون «المجد لله في الأعالي» من أجل إماتة أجساد الجميع.

غزوتي الأولى في الثقافة تألَّفتْ من مقابلة ممثل إذاعي حاولَ أنْ يغرز في لغز الفارق الدقيق. كان يقول جُملة ويطلب مني أنْ أخمِّن الانفعال الذي يُحاول أنْ ينقله – سواء أكان حزناً أم مُحاكاةً أم صدمة. كانت الجملة التي لا تُنسى «إنَّ زوجي الذي أحببته حبّاً جمّاً تركني»، وكان من المُفتَرَض أنْ أخمِّن بشكلٍ صحيح، من ارتفاع وانخفاض طبقة الصوت، ما إذا كان يتكلّم بلسان زوجةٍ حزينة أم زانية أم امرأة تحتضر. ولكن طوال الوقت – وكنا في الكافيتيريا في الطابق العلوي – كنتُ أعلم أنهم في دار السينما في الأسفل يعرضون فيلم «نواقيس كنيسة سينت ميري»، وكان الناس يستمعون إلى صوت بينغ كروسبي، ويُشاهدون الوجه الذي كنتُ أرى أنه يُشبه وجهَ ثعلبٍ حزين. كنتُ أعرف بالضبط اللحظة التي يتردَّد عندها بينغ ويعود إلى قول الوداع للراهبة الممرضة وكيف صاحت صديقتي «عُد وخُذ لك جرعة، بينغ!» وقال الجمهور الغاضب في الصالة «هسسسس» لأنَّ تعليقها قاطعَ جاذبية الانفعالات. واشتقت إلى النزول والجلوس على المقاعد ومشاهدة الفيلم مرة أخرى، الممرضة النقيّة، وأسرّة

Twitter: @ketab_n

المستشفى، ورقائق الثلج المنسابة والصوت الذي يُحدثُ غصّة في الحنجرة. ولكن لم يكن معي نقود. كانت النقود هي وسيلة الانتقال، كانت النقود تعني كل شيء – ملابس، جوارب، رحلة قصيرة، بودرة تنتشر في الهواء، تظليل للعين وربما أجراس الزواج.

كانت ذروة الأسبوع تتألّف من الذهاب إلى دار سينما معيَّنة يجري فيها عرض مسرحي قبل الفيلم. هنا كان يوجد كل الأشياء التي أصبو إليها – التنانير المشقوقة، الأفخاذ المسفوعة بأشعة الشمس، السترات الفضفاضة، والترتر، والنظرات الأنيقة، والسيقان المنحرفة وأسراب كاملة من الفتيات يقمن بحركات بهلوانية جميلة وهنَّ يُخفين أعضاءهن الأكثر صلة بالموضوع بمراوح وعُلب بودرة عملاقة. كان ذلك يحدث دائماً في فترة العصر – النصف الثاني من نهاري – وكنتُ أذهب وحدي وهذا أفضل للمشاركة في تلك الوليمة السرّية. تكون الأضواء فضيّة أو فضيّة مفزولة بالذهب، والفرقة الموسيقية التي تعزف ألحاناً عذبة، وقائدها الذي يرتدي سواداً مهيباً وعلى خشبة المسرح تلك المخلوقات مُجمّلة، هشّة، مُنعمة بغموض لا يمكن بلوغه.

وكأنَّ هذا لا يكفي إذ سرعان ما يعلم المرء أنَّ تلك الأشياء التافهة، تلك الدُمى الإنسانية مجرد خلفية لشخص «بالجينز» جاء متهادياً، يلبس لون بيج خفيف أو أبيض ضارب إلى الصفرة، يُخاطبُ مباشرةً بحب وحميميّة كل واحد يشعر بالوحشة منا وهو يُغني «امسحي هذه الدموع عن عينيك وحاولي أنْ تُدركي أنني منذ الآن سأكون دائماً رهن يديك». كان التصفيق حاراً إلى درجة أنَّه غنّاها من جديد. لا يهم. يمكن للمرء أنْ يجلس هناك، ويسترخي قدر ما يشاء، وينسى الجوع والدرس، ويبكي، ومن ثم يضحك على

Twitter: @ketab_n

فندق الرأس النحاسي – أقدم حانة في دبلن:

خلف النضد ترشف صاحبة المكان الشاي. المكان مملوء بقطع الأثاث، حيث الكراسي القديمة مكوّمة فوق كراسٍ قديمة أخرى، وثمة خزانة، وقليل من الخيش وأشياء أخرى. على الأرفف الزجاجية صُفّت قناني المشروبات المعتادة، والقناني الفارغة المعتادة، وهناك شمعدان متعدد الشُعب يحمل أزهاراً اصطناعية يعلوها التراب. هنا خطّط روبرت إيميت لثورته، وهنا جلس أولئك الشبان الأيرلنديون، وهنا حفر قاطع طريق اسمه على الواجهة الزجاجية قبل أن يفرّ هارباً. لقد أزيلت الساعة الشهيرة والطاولة الشهيرة. وثمة رقعة فوق جرس الباب تقول «جرس خاص بأهل البيت فقط» والأروقة تُفضي إلى غُرفٍ موصدة حيث لا ضيوف، أو يبدو أنه لا يوجد ضيوف. هذه هي أرض غودو.

Twitter: @ketab_n

لاعبو الرغبي:

بعض الأبطال السابقين يتحركون برشاقة استعداداً لضرب الكرة في مونكتاون، بالقرب من دبلن.

Twitter: @ketab_n

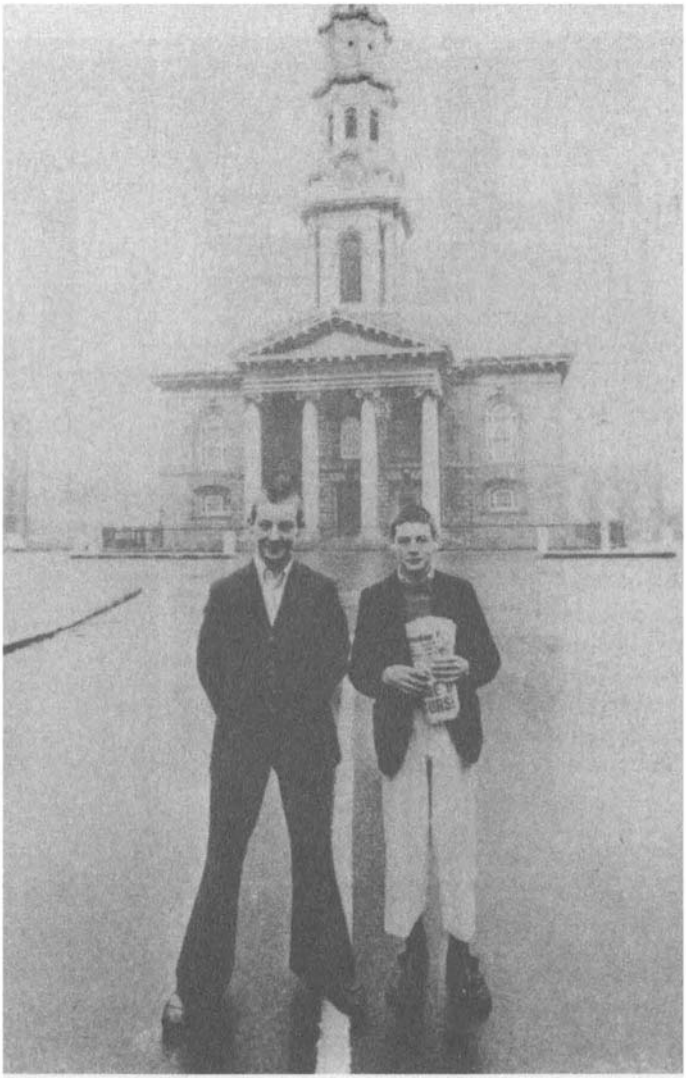

زعران دبلن:

إنهما من زعران دبلن واقفان أمام كنيسة القديس جورج البروتستانتية التي صُمِّمت على طراز كنيسة القديس مارتن في الحقول. وعلى مسافة قصيرة من المكان توجد واحدة من أشهر عرّافات أيرلندا ولدى الاقتراب من المبنى يقطع الأولاد لعبهم ليرافقوك إليها.

Twitter: @ketab_n

حي «الحرّيات»:

أقدم حي مأهول من مدينة دبلن، يسقيه نهرا دودر وبودل، وهو مقر كرسي كنائس مثل كاتدرائية القديس باتريك حين دُفِنَ العميد سويفت، وحيث نعيه يكفي لإدخال الرعب إلى قلوب السائح، أو الحاجّ أو المؤرّخ:

لقد أبحرَ سويفت إلى الراحة
السخط الهمجي هناك
لا يمكنه أن يجرح صدره
حاكِه إنْ جرؤت
أيها المسافر يا مَنْ سلبَ العالمُ عقلَه.

Twitter: @ketab_n

متشرّدة:

فتاة صغيرة في مراسي السفن تجمع كل الفحم. والحظ يُحالفها دائماً تقريباً لأنهم يملؤون سيارات الشحن أكثر مما ينبغي، فتسقط منها قطع من الفحم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ظلال رجال بين الجياد:

ألقى مزارعٌ محليّ قصيدة بحماسة القرن الثامن عشر. قصيدة غنائية طويلة حول رجل يتألّم من أسنانه، فذهب إلى طبيب أسنان، وحصل على أسنانٍ جديدة فوقعت في الطبق، فعاد إليه يطلب تعويضاً فانخرط الاثنان في شجارٍ عنيف لم يوقفه إلا ظهور المسدس، فعاد المريض إلى بيته وهو يحكّ رأسه ويُثبّت السن القديمة في مكانها داخل فمه.

الرجل الذي ألقاها يعيشُ وحيداً لأنّ زوجته موجودة في إنكلترا تعاني من انهيار أعصابها. وهو يرش نفسه بعطر برائحة البخور، ويقول إنه لا يحب «أن يفوح برائحة العرق القديم». ونمط حياته هو أنه يمارس الزراعة، ويتاجر ببعض رؤوس الماشية، وجيرانه يُقدمون له وجبة يوم الأحد، وفي كل ليلة يملأ جوفه بعدد من مكاييل المشروب، ويعود إلى المنزل وهو سكران ويندس في الفراش مع «زجاجة المياه الحارة العزيزة».

هناك أشياء معيّنة لا يمكن أن تفعلها لأجل الناس... ببساطة لا تستطيع.

(الصفحة التالية)

الطريق:

إنكَ تتقدّم باطّراد نحو الصمت، إنه في وقتٍ واحد يُناديك ويصدّك. وإذا مكثنا هناك مدة كافية فإنّ الطبيعة تجذبنا إلى جوّ اللانهائي والمجهول.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

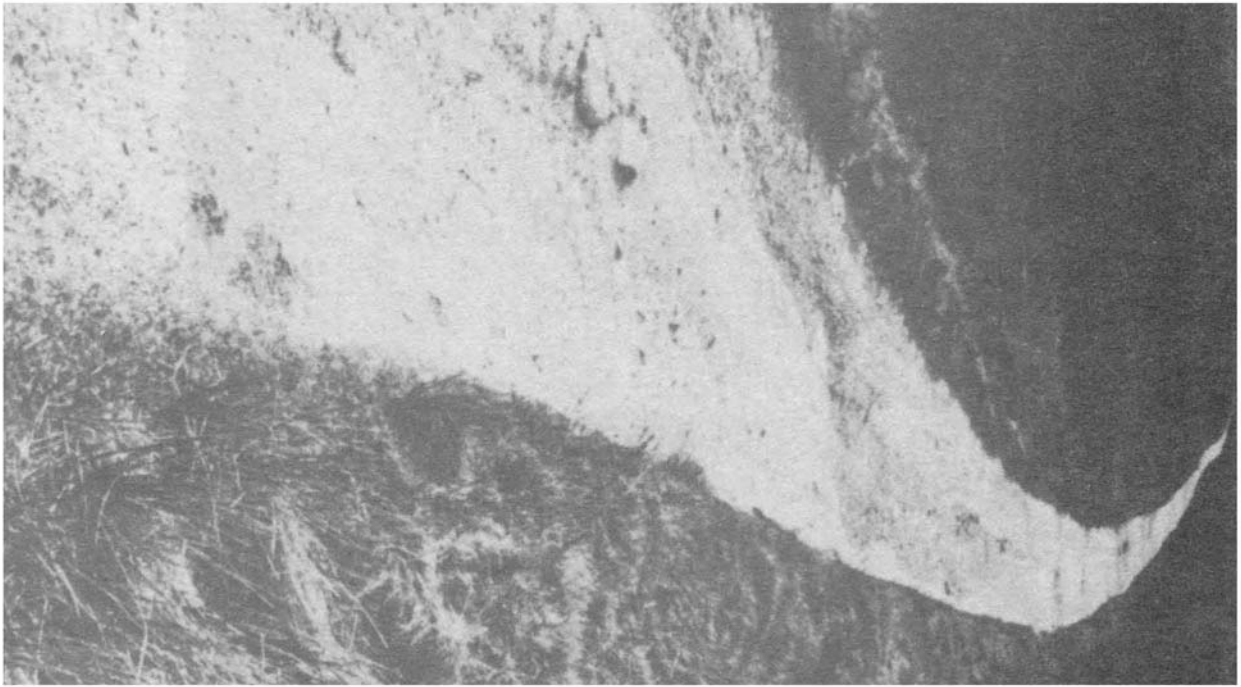

ما فعله الأقزام ثم يذهب إلى الكواليس ويراقبهم جميعاً يخرجون وأخيراً يُثار من مشهد المغني وهو ينحني لكي يثبّت مشبك دراجته. ويُبدِّل بذلته البنيّة المائلة إلى الرمادي أو الأصفر الشاحب بشيء عملي أكثر وبعد سهرتي الخامسة هناك أصبحتُ المتلقّية السعيدة للغمز. وبعد فترة قصيرة تجسّدتْ دعوتي إلى غرفة تغيير ملابسه. مدَّدني بعناية على ظهري على أريكة طويلة من شعر الخيول الأسود، وقبّلني قبلة طويلة، تبِعها إحساس عميق بعدم الفهم ممزوج بالبهجة بينما الكتفَين بلونهما البني المائل للرمادي والوجه الشبيه إلى حدٍ بعيد بفطيرة ليّنة يهبط نحوي. كانت الملاحظة المكتوبة على مرآته تقول «أحبك، يا سو». مَن هي سو، أهي سو، سو، سيدي سو؟ ضغطَ فخذاه أعمق فأعمق، وأصبح وخز شَعر الخيول واضحاً وبينما هو يُضبط نفسه بصورة تامة مع جسدي المرعوب شعرتُ بأنَّ كل شيء يذوب ما عدا وعيي المُضطرب. ثم سمعتُ، وأنا متيبّسة كقضيب إذكاء النار الشهير، وكأنه صادر عن الشيطان أشدّ العبارات إثارة للاشمئزاز، سمعته يقول «يمكنني أنْ أخترقكِ وكأنكِ من الزبد». لكنَّ ملاكي الحارس كان دائماً هو المُسيطر! وفي تلك اللحظة بالذات سُمِعَ قرعٌ على باب غرفة تبديل الملابس. كان مُعدّ خشبة المسرح ليقول إنه لم يتبقَّ غير خمس دقائق لبدء العرض. كانت الفتيات الأخريات يقفنَ في الظلام في انتظار فرصة للنشوة. وعندما سألته إذا كان في إمكاني أنْ أعود لاحقاً قال «مستحيل، يا حبيبتي». كان ينتظر وصول زوجته مع الشطائر ووعاء الشاي. كانت زوجته ذات شعر أشقر مبيّض. انتظرت حتى ألقي نظرة بلهاء عليها. لعلّها سو.

في الأسبوع التالي ارتدى بذلة قطنيّة مُخطّطة وغنّى «أودُّ أنْ آخذكِ على متن قارب بطيء إلى الصين»، وهو يُهدهدُ بين ذراعيه

Twitter: @ketab_n

شخصاً وهمياً. ثم جاء مُغنٍ آخر، من أميركا اللاتينية، أشد سِحراً ويحشو أسنانه بالذهب وثمة وشم على يديه وصدره. ولم يكتفِ بالغناء بل رقص أيضاً – رقصاً من نوع خاص، مُستخدماً يديه، مُبتكراً ظلالاً، ويقوم بالدوران في الهواء. ويُقال لك إنَّ هذا رقص باليه.

نعم، إنكِ تتحدرين. لقد ضللتِ طريقكِ بعيداً عن ذِكرى حقيقة جراح المسيح الشبيهة بالقطع الناقص، وتجدين نفسكِ تعيشين إكراماً لتلك المباهج الأسبوعية حيث يمكنكِ أنْ تشاهدي على الشاشة «التواني العابث بالطلاق والتوهّج المُشع للعلاقات الجنسية بالألوان الصارخة». وليس هذا فقط، بل تسمحين لنفسكِ أنْ تعيشي من جديد نشوة أريكة شَعر الخيول وخَدَر الجسم الكامل حتى اللحظة الرهيبة ونبوءته بقُدرته على اختراقكِ كما يخترق الزبد. أصبحت العلاقات الغرامية السرية من سِماتكِ. حتى وأنتِ تركعين بجوار سريركِ لكي تُثيري إعجاب رفيقتكِ في الغرفة، يشرد ذهنكِ في وديان البهجة تلك، وقد بدأ حدس الأسبوع التالي يأتيكِ، بلباسه، بأفخاذ الفتيات، والقصة السينمائية وما يمكن كشف النقاب عنه.

في الصحف تجدين ذكراً لنوع الأشخاص الذي تُصبحين عليه – «الحارّة ذات الشَعر الملتفّ بدقّة ومُبيَّض حتى بياض الثلج، عاهرة أُزيل حاجباها واستُبدلا بخطوط من قلم رصاص، مومس بفم كمقطع معصور لقطعة سجق دامي». وكما هو مُشار كنتِ واحدة منْ عديدات انتظرنَ تحت مطرٍ شتويّ بارد، ضمن طوابير، تصفين إلى ترنُّح اللافتات المُعلَّقة وصريرها، راغبةً في وضع آخر شلن معكِ في شق صندوق البريد، لكي تدخلي من جديد وتفقدي أونساً آخر من استقامتكِ التي لا تُعوَّض. كان المسرح بعيد المنال بما أنَّ الأمر

Twitter: @ketab_n

يحتاج إلى مُرافق. لكنه أيضاً يتمتع بجاذبية آثمة. لقد قرأتِ أنَّ أعمال يوجين أونيل تذخر بـ «القتل، والانتحار، والجنون وتلميح إلى انحراف جنسيّ»، وأنَّ يوجين أونيل «كان كتلة مُشوّشة من علم النفس الكاذب مع حوار مُصطنع».

كان هناك حديث حول الأدب، لكني لم أكن طرفاً فيه، وكان دون أدنى شك مذموماً في دبلن والحانات والمجالس، وبعد موعد الإغلاق في بونا فيدس عند سفح الجبال حيث كان هضم الـ crubeens أو حوافر الخنزير يتوسط ثمالة سريعة. ومع الرجال الشاربين، الذين كانوا «أدباء»، كان معسكر مقابل يُدعى «السكارى» وهؤلاء مع مساعديهم كانوا يلجئون إلى المقاهي لكنَّ وفاتهم تكون فجائيّة وغامضة كحال السكارى. والجادون في شركة دبلن كوربوريشن كانوا يوشكون على اتّخاذ قرارٍ خطير برفض لوحة روو[92] Rouault «المسيح مُتوَّج بالشوك» لأنها شديدة الإباحيّة، ورجل كان في زيارة إلى إنكلترا جلبَ معه طقم أسنان اصطناعية أقسمَ على أنها تخصّ ت.س إليوت.

ذهبتُ إلى مكان قريب من ويسلند رو، إلى فندق فين — حيث كانت نورا بارناكل[93] تعملُ وصيفة عندما قابلها جيمس جويس — لكي أبحث بشكلٍ غامض عن غرفة الطعام التي احتفل فيها والداي بإفطار عرسهما. كانت تلك ذكرى زواجهما. لم أجتز العتبة، بل وقفتُ، ممسكة بالدراجة، أنظرُ وأنتظر، متأكّدة من أنه قبل انتهاء الليل سيحدث أمرٌ مصيريّ. لعلنا نصمِّم هذه الأشياء. ولاحقاً مشيت

---

92 جورج روو (1871- 1958): رسام فرنسي انطباعي. كانت أعماله شديدة التديُّن، وتتضمّن الكثير من الزجاج الملوَّن. - المترجم

93 نورا بارناكل: أصبحت زوجة الكاتب الأيرلندي جيمس جويس. - المترجم

Twitter: @ketab_n

على طول المرسى، تحت رذاذ المطر، مارة بالمُصليات التسعة، أباركُ نفسي عقلياً، عاجزة على ترك المقودَين خشية أنْ أقع، مروراً بالمحل التجاري الذي يبيع عباءات وأثواباً مُستعملة نحو الجسر الذي كان بؤرة نشاط لأنَّ الحافلات كانت تتوقف هناك ويُبدل قاطعو التذاكر والسائقون نوباتهم. وكان هناك مكتب لإحدى الصحف قريب فذهبتُ إليه يحدوني حافز. وكنتُ قد دخلتُ مسابقة أدبية ووددتُ أنْ أعرف إنْ كنتُ قد فزتُ. أوقفني بعض الرجال على الدَرَج لكي أتلو «Laudamus te» «إننا نباركك» ووصلت إلى الخان. قال أحدهم إنه يتمنى ألا يكون اسمي شيلا أو أونا أو مورا أو أي شيء مضحك كهذا. كانت أُذناي مثقوبتين وأضعُ قرطاً متدلياً مكسواً بالذهب فأبدى إعجابه به وقال إنه يصلُح قرطاً مناسباً لأنف أنثى خنزير. وكنتُ قد ثقبتُ أذنيّ بعد ظهيرة ذات يوم، مُضحّية بالوقت والمال من ذلك الهوس المُحبَّب، السينما، وكان الطبيب الذي ذهبتُ إليه قد قال لي غاضباً إنني إذا أصدرت ولو مواءً أثناء ثقبه إحداهما فسوف يرفض أنْ يثقب الأخرى. هو أيضاً رأى فيَّ، أو في تصرّفي الخالي من الهم، بذرة شيءٍ سوف يودي إلى الدمار.

في الحانة شرب الرجال كلهم نخبي فاحمرّت وجنتاي خجلاً وكان أحدهم من اللطف بحيث يسألني إنْ كنتُ أرغب في علبة من البسكويت. رجال واسعو المعرفة يتحدثون من فوق رأسي عن تفعيلات السبوندي، ويُناقشون المزايا الممتازة لويسكي الملت، والجدري البرتغالي، والجنون الميتافيزيقي لرجال مقاطعة كيري في مُقابل الجنون الرؤيوي لرجال مقاطعة كلير. كانوا يقدمون لي المشروبات، الجن والتونيك، والجن والليمونادة البيضاء، الجن و«هو». كانت الغرفة قد بدأتْ تتمايل بشكل مُسلٍّ ومع تذبذب المصابيح

Twitter: @ketab_n

المُعلّقة ومشهد مياه نهر ليفي بدأتُ أتخيَّل نفسي على متن سفينة وكنتُ كالشخص الذي في الأغنية «أيمّمُ وجهي صوب أميركا». كانت هناك أيضاً أبواق إنذار الضباب تهدر ومع الإعلان بصوتٍ عالٍ عن اقتراب موعد الإغلاق تمَّ التوصُّل إلى قرار بذهابنا إلى حانةٍ غير مُرخّصة تُديرها نساء. وكان أحد الرجال الذي رأيتُ أنه يحمل وجه بيتر أبيلار[94] يوليني انتباهاً خاصاً، ويُخبرني قصة طويلة عن أنه كان موجوداً في محطة قطار نائية وشبه ثمل عندما مال مُسافر من النافذة وسأله إنْ كان يبحث عن زهرة غاريوين[95]، وتحدثنا معاً عن مسرحية كولين بوين[96]، وعن الأراضي المنخفضة المحيطة بليمريك التي دائماً تقريباً تكون مغمورة بالمياه وكآبة قصة جيرالد غريفيث[97] التي جرتْ أحداثها هناك. ثم غنّى «القبطان ذو السبلتين» ووسط الصمت الذي تلا التصفيق أخبرني رجلٌ هادئ قريب مني، ذو لكنة إنكليزية، كيف أنه كان أحد أولئك المسؤولين عن إخراج ديف من السجن، لقد وضعَ المفتاح داخل الكعكة وتمكّنَ ديف به من خداع السلطات. لقد بتُّ أعيشُ أخيراً.

عدتُ أدراجي إلى الصيدلية وأنا مفعمة بالتذمُّر. الأغبياء أثاروا

---

[94] بيتر ابيلار (1079- 1144): لاهوتي وفيلسوف أخلاقي فرنسي. اتُّهِمَ بالهرطقة. عاش قصة حب مأساوية مع ألويز. - المترجم

[95] زهرة غاريوين: هو لقب كولين باون المذكورة في المادة التالية.

[96] كولين باون: وتعني الفتاة الجميلة ذات الشعر الأشقر. وهي مسرحية ميلودرامية من تأليف ديون بوسيكولت. قُدّمت للمرة الأولى في نيويورك عام 1860. وتحكي عن قصة شاب يتزوج من سيدة ثرية هرباً من الفقر ويتسبَّب بقتل الفتاة التي كان متزوجاً منها سراً. - المترجم

[97] جيرالد غريفيث (1903- 1940): روائي وشاعر وكاتب مسرحي أيرلندي. روايته «الجامعيون» هي أساس حكاية كولين باون المذكورة آنفاً. - المترجم

Twitter: @ketab_n

أعصابي، اللون البنفسجي يُلطّخُ يديَّ، وخلَطْتُ الوصفات في هاونٍ مُشقَّق قديم مع شيءٍ ما وأنا على حافة الهياج. اتّصلَ بي هاتفياً. مزيد من المقابلات في الحانات والحديث الذي ينطوي على معرفة واسعة يجري بشكلٍ رائع، كمُسلسل، وكانت التغيُّرات، كما يُقال، تضجُّ داخل ملابسي، عبر استعارةِ كساءٍ أحمر لليدين ومن ثم شالٍ مشغول بالإبرة أزرق اللون.

كان رأيه أنَّ أصدقاءه يلهثون ورائي. فأدليتُ بأحد تلك التصريحات التي لا يمكن أنْ تصدر إلا في ذروة عهد الصِبا، وعلى الرغم من صحّته، لابد أنْ يُظنّ دائماً في خضم الحياة أنه غير صحيح، أنه مُبتذَل. قلتُ ردّاً على ريبته، إنه إذا كان لديك شيء مُخصَّص لشخصٍ ما، فإنكَ لا تُعطه هكذا ببساطة إلى شخص آخر. أمسكَ بيديّ. كان ذلك هو كل ما يحتاج إلى معرفته.

ولكن ماذا كان لديّ؟ وما الذي كنتُ أنوي أنْ أعطي؟ وأضحت اللقاءات مُشوّهة أكثر فأكثر وتجري في حانات تقع على مسافة هائلة من مركز المدينة. وذات ليلة اقترحَ أنْ نستقلّ حافلة أحاديّة الطابق ونخرج من البلدة لنشاهد الأسيجة والأزقة المورقة. قد يكون النضج هو كل شيء، ولكن في تلك اللحظة من الزمن كان استسلامي له في حقل أمراً يتعلّق أكثر بتعذُّر التفسير منه بفكرة النضج والمتعة. ألم يولَدُ المرء، وينشأ ويتربّى على الاعتقاد بأنَّ ذلك جريمة لا تُغتَفَر، ويترك وصمةً على الجسد، واحتمال الحَمل ووداعاً لصداقة الرب. وشعرتُ بالضياع في عالم الجسد وانروح. ألم يولَد مع المجموعة نفسها من التعاويذ ما عدا أنَّ الرجال متبجحون أكثر من النساء.

رافقته إلى أحد المطاعم حيث رفضتُ أنْ آكل في حالٍ كان غير

Twitter: @ketab_n

قادرٍ على دفع ثمن الطعام. وجلستُ، أراقبه وهو يأكل رقائق البطاطا المقلية، والسجق والبسلة، ليس بنهم للأكل بل بتوقٍ إلى السؤال عما حدث. أهذا كل شيء؟ هل ضاعت البتول، الجوهرة المكنونة، في مستنقعٍ مجهول؟. كان بيراندييللو[98] قد قال إنه في مكانٍ ما كان هناك رجل يعيش حياته لكنه كان يجهلها. انتابني الإحساس نفسه وأنا أراقب وجه صديقي المُجِدّ ورموش عينيه الشقراء، أتقصّى أدقّ أثر للغضب لرفض حبّات البسلة الثبات على الشوكة قبل أنْ يُلقي بها في تجويف فمه. وحدَّدنا موعداً للأسبوع التالي لكنَّ اهتمامه كان قد تراخى.

بعد ذلك بأسبوع وقفتُ على جسر أوكونل واتّكأتُ على جدار. كان هناك منصّة لاستخراج البترول وكان الشهر هو تشرين ثاني. أبواق إنذار الضباب، ونواقيس الكنيسة و «رجل يائس» يتسلّى بالقفز من حافلات منطلقة وهو يصرخ «بانغ بانغ» للعالم. رحتُ أتمشى جيئة وذهاباً، غافلة ولستُ بغافلة. وتأتي حافلة ويتدفّق الناس خارجين منها ويدفعونني بعيداً عن طريقهم، ولا يظهر أي أثر له. أضواء النيون تعلن بأحرف مختلفة جميلة وتكرِّر الإعلان عن كلمة «بوفريل» . كان للسماء الدفق الكئيب المعتاد الذي تتصف به سماء المدينة ليلاً. انتظرتُ وأنا أعلم أنه لن يأتي، ومع ذلك كنتُ عاجزة عن التزحزح، ليس لفقدان الأمل بل لشيء أفضل وأشدّ إيلاماً هو معايشة ألم أول هجرٍ واعٍ لحبيب.

---

[98] لويجي بيرلنديللو (1867- 1936): روائي وكاتب مسرحي إيطالي. أشهر مسرحياته «ست شخصيات تبحث عن مؤلّف» و «هنري الرابع». نال جائزة نوبل للأدب عام 1934.- المترجم

Twitter: @ketab_n

مرّت سنون كثيرة قبل أنْ اقرأ كتب كييركغارد[99] وألمحُ قبساً من إمكانية الانتصار الذي يمكن أنْ يلقى الرفض، بالمعرفة المؤكّدة – وهذا لا صلة له بتاتاً بالانتقام – بأنَّ الذين يعيشون ويُتابعون رحلة مشاعرهم أكثر ثراءً من الغاوين الذين يرتكبون فِعلتهم ويهربون. وأول قصيدة مُثيرة للغثيان تذكّرتها في تلك اللحظة، ورحتُ أردّدها بصوت عالٍ أضحتْ بالنسبة إليّ أشبه بمصدر تسلية وحافز على الاستمرار. وتقول:

الظلام يصنع
بلطف صوراً للعذراء من أوجهها كلها
مُضفياً على الأماكن المُقفرة القرميدية
نبضاً خاصاً من الحياة
ويُذيبك
إلى أن تهمس تلك العيون البيّة
بالأكاذيب
بحيث أنَّ القلب الضخم بعد ذلك
يموت.

بعد أنْ تركني شخص آخر على عجل بوقت قصير، وكما فعلتْ ابنة اللورد أولن، تحدّيتُ العائلة والأصدقاء، ولم أغرق، بل ذهبت بدل ذلك إلى حصنٍ موحش في الجبال يطل على امتداد من

---

[99] سيرين كيركغارد (1813- 1855): فيلسوف ولاهوتي دانماركي. رفض المسيحية الرسمية، وكان أول الوجوديين بتوكيده على مسؤولية المرء الأخلاقيّة وحريته في الاختيار. من مؤلفاته «إمّا/أو». - المترجم

Twitter: @ketab_n

الشجيرات، والخلنج وبحيرة عذبة الماء. الصوت الذي غالباً ما يصلني من هناك هو خوار الأيل في غابة الصنوبر عند الغسق. كان ينطوي على جوهر الشباب – الجنس، الحاجة، العزلة والتهديد. لقد انتقلتُ من الريف إلى المدينة، ومن ثم عدتُ إلى العزلة من جديد. إلى الأبد. تعذيب الذات المُبكّر، الرؤى، التاسوعيات التي لا تنتهي، «عشق» لاعبي الهرلي لاحقاً، ذوبان الأكباد في السينما، مزيج الحاجة إلى، والخوف من، السلطات مهّد الطريق وخضعتُ لذلك التحول من الطفلة إلى العروس بروح الكفّارة والاستسلام.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

7. الهروب إلى إنكلترا.

لم تكن مغادرة أيرلندا مؤلمة على الإطلاق. استقللتُ قارب البريد، كغالبية الآخرين، بقيتُ يقظة طوال الليل، أراقبُ الشُرب، والإراقة، تمشّيت على ظهر القارب، تذكّرتُ كيف جاء السيد ثاكراي[100] والسيد هاينريش بول[101] بالقارب ليكتبا على هواهما عن الرحلة، تذكّرتُ العدد الهائل من الآخرين، والمواطنين، الذين خرجوا لينسوا. كانت محطة يوستن غابة، كئيبة ومُجرّدة، الحمائم نفسها بدت صناعية، وعندما رأيتُ وجوه الإنكليز لم أفكّر في القائمة الطويلة لتاريخ من سفك الدماء، بل في حوادث القتل التي قرأتُ عنها في صحفِ أيام الآحاد وعن تلك المرأة الإنكليزية السمراء الزائرة من أيام زمان التي اشترت قلنسوات قمعيّة وقطيفة بودرة مُثبّتة إلى منديل.

هناك كان سيصبح موطني. لم يكن ثمة ما يُوصى به. فجوّه غير

---

100 ثاكراي: وردت ترجمته سابقاً

101 هاينريش بول (1917- 1985): روائي وكاتب قصة قصيرة ألماني. نال جائزة جورج بوخنر عام 1957 وجائزة نوبل للأدب عام 1972. من رواياته «شرف كاترينا بلوم الضائع» و «المُهرّج» و «صورة جماعية مع سيدة». - المترجم

Twitter: @ketab_n

صحي، وغير ودّي، مُدججٌ بالمدافع وكئيب لعيني الجاهلة لأني كنتُ دائماً أشاهد أكاليل الزهور ولم أكنْ أعلم أنَّ في إنكلترا شيئاً اسمه يوم أحد الذِكرى.

لكني هربت. ذلك كان انتصاري. الشجار الحقيقي مع أيرلندا بدأ يُزهِر داخلي حينئذٍ؛ فكّرتُ في كيف غلّفتني، وغلّفت مَن حولي، ومن قبلهم آباءهم، الكلّ انحنى أمام مخاوف متنوعة – الخوف من الكنيسة، الخوف من الربا، الخوف من الأشباح، الخوف من السخرية، الخوف من الجوع، الخوف من الفناء، والخوف من ميلهم المتأصّل عميقاً إلى العدوان بحيث أنهم لا يضربون إلا بعضهم بعضاً، بما أنهم لا يتمتعون بسلطات فطرية ليضربوا الأعلى مقاماً بينهم. وظهرت الشفقة أيضاً، الشفقة على أرضٍ طالما عُرِّيتْ، شفقة على شعبٍ يكره أنْ يعترف بوجود خطأ. لهذا نغادر. لأننا نتوسل أنْ نختلف. لأننا نشعر بالرعب من الكبت النفسي. لكنَّ المغادرة مشروطة. فالشخص الذي أنت عليه هو لعنة على الشخص الذي ترغب في أنْ تكون.

لكنَّ الزمن يُغيّرُ كلّ شيء بما فيه موقفنا من المكان. لا وجود لشيءٍ اسمه الحقد الدائم ولا لحالات ليست غامضة من الحب الأرضي. أستطيع أنْ أُفكّر في أيرلندا على امتداد الساعات، أستطيع أنْ أتصوَّر دون أنْ أخطئ كثيراً فيما يجري في أي بلدة من البلدات الصغيرة ليلاً أو نهاراً، يمكنني أنْ أرى الأرض المحروثة والحديقة المُسوّرة، أنْ أرى زَبَد الشراب المُراق على طول النُضد، وأسمع الجدال والأغاني، وناقوس التل والصلوات للموتى. وأكاد أعلمُ ما يمكن أنْ تكون كل واحدة من صديقاتي تفعله في أي ساعة. إنَّ إيقاع الحياة هناك شديد الرسوخ. إنني أفتح كتاباً، ربما كتاباً مدرسياً،

Twitter: @ketab_n

أو كتاباً عن الخزعبلات، أو كتاباً في أسماء الأماكن، ويكفي أنْ تقع عيني على أسماء مثل باليهولي أو راهين حتى أغوص في ذلك العالَم الذي استقيتُ منه الكثير من الغِنى والحزن الذي لا ينضب. سيكون السمكريون الآن في راثكيل يقودون سياراتهم عائدين إلى منازلهم، والعرّافة في قافلتها تُرسل طفلها للمرة العاشرة ليجلب رغيفاً من الخبز المُقطَّع، بينما على بُعد ميل أو ميلَين سوف تُخبر الليدي كذا وكذا في منطقتها الإشبين كيف أنها أثارت هياج حصانها مرة أخرى، وعلى أحد الأبواب في إحدى البلدات ثمة وشاحٌ صغير من الكريب الأسود يتدلّى من المِقرَعة مُثبّتة عليه بطاقة سوداء الحواف مكتوب عليها بخط اليد الزمن الذي سيُزال فيه الرُفات، بينما أكواخ البنغالو البسيطة تنمو كالفطر على طول حافتيّ الطريق العامّ. وسيكون الرجال يُحاولون كعهدهم دائماً تحديد مصيرهم إما بشرب الخمر، أو بإلقاء الحكايات البذيئة، وستكون النساء الأخريات مُدركات حتى الزُبى كم أنَّ أعباءهنّ ساحقة، بينما الفتيات الصغيرات يُثرثرن، ليبتكرن تسلية لأنفسهن.

صحيحٌ أنَّ الوطن يُغلِّف طفولتنا وتلك الأزقة، والزرائب، والحقول، والأزهار، والحشرات، والشموس، والأقمار والنجوم يتكرَّر ظهورها إلى الأبد وتغويني بإمكانية الحصول على مفتاح من الذهب يوصِل إلى ما بعد المولد إلى جذور شجرة نسبي. هل أنا أيرلندية؟ في الحقيقة ما كنتُ لأرغب في أنْ أكون أي شيء آخر. إنه حالة ذهنيّة بالإضافة إلى كونه وطناً فعلياً. إنه أنْ يكون المرء في حالة نزاع مع القوميات الأخرى، وله فلسفة مختلفة كل الاختلاف حول اللذة، والعِقاب، والحياة، والموت. على الأقلّ هو لا يجعل المرء جباناً.

إنَّ أيرلندا بالنسبة إليّ هي لحظات من تاريخها، وجغرافيّتها،

Twitter: @ketab_n

هي حفنة من الناس يُجسّدون سِمتها الغريبة، قسمات وجه، أغنية، بيت شِعر من مسرحية لسينغ، نفحة من نسيم الليل، لكنَّ أيرلندا وهميّة كما تحلم بها إلهات الشعراء، تقودهم ضمن دوائر غريبة. إنني أعيش خارج أيرلندا لأنَّ شيئاً فيَّ يُحذّرني من أنني قد أتوقف إذا عشتُ هناك، أني قد أكفّ عن الشعور بمعنى أنْ أحمل مثل هذا الإرث، قد أزداد هدوءاً في حين أني في الواقع أريد من جديد ولأسبابٍ غير مُحدَّدة أنْ أقتفي أثر ذلك الدرب نفسه، درب الطفولة الواضح المعالم ذاك، على أمل أنْ أعثر على حلِ اللغزِ الذي سوف، أو قد، أو يمكن، أنْ يجعل من الممكن إنجاز القفزة التي تُعيد المرء إلى مكانه ووعيه الأصليين، إلى البراءة الأصلية للّحظة السابقة للمولد.

انتهى الكتاب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلفة:

وُلدت إدنا أوبراين في 15 كانون أول (ديسمبر) من عام 1930 في غرب أيرلندا وهي تعيش اليوم في لندن، وتعدّ من أكثر كتّاب بريطانيا شعبيّة وتقديراً. من مؤلفاتها: «فتيات الريف»، «ذات العينين الخضراوين» (في طبعتها الأولى كانت بعنوان «الفتاة الوحيدة»)، «فتيات في نعيم زواجهن» (هذه الروايات الثلاث طبعت في كتاب واحد تحت عنوان «ثلاثية فتيات الريف»)، «آب شهر خبيث»، «مكان وثنيّ»، «زي وشركاه»، «أيرلندا الأم»، «ليل»، «امرأة شائكة وقصص أخرى»، «أكاد لا أعرفك يا جوني»، «الفرسان العرب» (مع صور فوتوغرافية لجيرارد كليجن)، «السيدة راينهارت وقصص أخرى»، «العودة»، و«وليمة عيد الميلاد»، ومسرحية «فرجينيا» حول الكاتبة فرجينيا وولف. نالت إدنا أوبراين جوائز عديدة، منها جائزة الرواية من صحيفة يوركشير بوست. من مؤلفاتها الأخيرة «سيرة حياة جيمس جويس» (1999)، «في الغابة» (2002)، «ضوء المساء» (2006)، وسيرة حياة لورد بايرون تحت عنوان «بايرون العاشق» عام 2009.

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المُترجِم:

ولد أسامة منزلجي في مدينة اللاذقية عام 1948، وفيها أتمّ دراسته الثانوية ، ثم انتقل إلى مدينة دمشق حيث التحق بقسم اللغة الإنكليزية وأدابها ونال شهادة الليسانس في عام 1975. عملَ فترة وجيزة في إحدى الشركات الملاحية، لكنه سرعان ما تركها ليتفرّغ للترجمة.

أول قصص قصيرة ترجمها كانت قصة «حديقة كيو» للمؤلّفة البريطانية فرجينيا وولف في عام 1971، ثم رواية جيمس جويس القصيرة «لميْت» واللتين لم ينشرهما. وخلال السبعينيات انكبّ على ترجمة مجموعة جيمس جويس القصصية «أهالي دبلن». لكنّ أكثر ما جذبه هو قصص الكاتب الأميركي هنري ميللر، وكانت رواية «ربيع أسود» عام 1980 أولها، ثم توالت الترجمات لهذا الكاتب ولغيره.

من بين ترجمات أسامة منزلجي العديدة نذكر: «ربيع أسود» ، «مدار الجدي»، «أهالي دبلن»، «وينسبرغ، أوهايو»، «تشريح الدراما»، «سكسوس»، «بليكسوس»، «نكسوس»، «مذكرات تنيسي وليامز»، «جوليان» .... وغيرها.

Twitter: @ketab_n

أيرلندا الأم

«أيرلندا الأم» عبارةٌ عن إجلالِ الكاتبة لمسقط رأسها والثناء عليه. صدر عام 1977، ويتضمّن مقالات قائمة على أساس تجربة ذاتية. فيها تنسج أوبراين قصة حياتها الشخصية مع العادات والتقاليد المحليّة والمعرفة المُكتسبة العريقة لأيرلندا. ترقب من خلال عينيّ فتاة صغيرة سلوكيات ذلك المجتمع المُغلق، وتسرد مزاياه وعيوبه بقلب مُحب وبعتاب العاشق لأرض وطنه. وعلى الرغم من خروج أوبراين من وطنها الأم قسراً بسبب آرائها غير التقليدية، في مجتمع «مُغلق» كما وصفته، فإنّ ذلك لم ينل من اعتزازها به ومحبتها له ولتاريخه وأساطيره.

«دعني أقول قبل أنْ أباشر إني لا أغفر لأحد. أتمنى للجميع أسوأ حياة ومن ثم لظى الجحيم وزمهريره وفي الأجيال القادمة اللعينة السمعة المُشرّفة». من «مالون يحتضر» لصموئيل بيكيت.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA
أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
ISBN 978-9948-01-334-1
9 789948 013341 >
cover by phxcom.com